

وَأَلَّا تَسْتَوِي
الْحَسَنَةُ
السَّيِّئَةُ
ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ



الإعجاز القرآني: المفهوم والإشكالات - المجاز في القرآن الكريم د. ناجي الحلاوي

واحدة الخالق ووحدته الخلق

د. عبد الحق معزوز

كيف نُصِبَت الجبال؟

د. نبيل غربال

الثورة المفدورة

م. فيصل العشي

الثقافة والجائحة : ماذا قُدمت
الثقافة لإنسان الحجر الصخري؟

د. عبدالرزاق بلعقروز

الدين والسلطة
في فكر عبد الرحمن الكواكبي

عمر مرديف

الأمركزية الإدارية الجغرافية
الموسعة لسورية المستقبل (1-2)

د. عبدالله التركماني

هدف المجلة

هدف مجلة الإصلاح بلورة فكر وسطي يتفاعل مع محيطه ويقترح حلولاً لمختلف مشاكله الفكرية والسياسية والاجتماعية. وتسعى المجلة أن تكون حاضنة لأفكار ورؤى تناضل من أجل بناء دولة فلسفتها خدمة المواطن، ومجتمع مبني على التعاون والتآزر والعيش المشترك في كنف الحرية والمساواة. هي منبر للتّحليل واقتراح البديل من دون تشنج إيديولوجي ولا تعصب لفئة دون أخرى. يحلم القائمون عليها مواصلة ما بدأه المصلحون، دون تقديس لهم أو اجترار لأفكارهم، منطلقون من الواقع الذي يعيشون فيه، متمسكون بهويّتهم العربية الإسلامية ومنفتحون على العصر وعلى كلّ فكرة أو مشروع يؤدي إلى الإصلاح.

المشاركة هي تأييد المجلة

- * النشر بالمجلة تطوعي وبدون مقابل و يتحمّل فيه الكاتب مسؤولية أفكاره ومواقفه.
- * لإدارة المجلة كامل الصلاحيّة في نشر أو رفض المشاركات.
- * لا تقبل المشاركات التي تدعو إلى العنف أو التمييز على أساس الجنس أو العرق أو الدين أو تتضمّن شتماً أو معلومات من دون ذكر المصدر.

الاتصال بالمجلة

- * توزع المجلة مجاناً عبر البريد الإلكتروني ومواقع التواصل الاجتماعي
- * رئيس التحرير : فيصل العشي، faycalelleuch@gmail.com
- * مراجعة لغوية : علي عبيد - فيصل الرباعي.
- * ر.د.م.د : 2902 - 2382.
- * البريد الإلكتروني للمجلة : alislah.mag@gmail.com
- * موقع الواب : www.alislahmag.com

- * صفحة الفيس بوك : https://www.facebook.com/Alislahmag





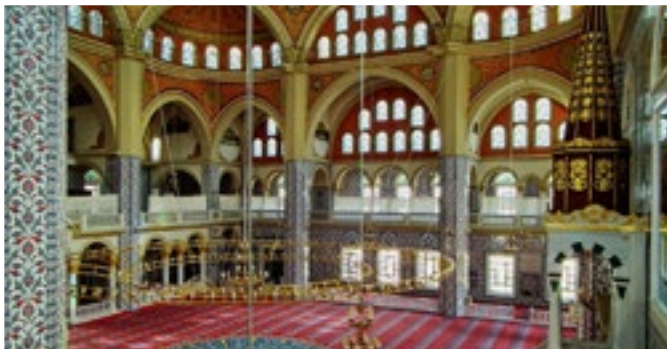
6	فيصل العشي	الثورة المفدورة نافذة على الفلسفة
10	د عبد الرزاق بلعقروز	الثقافة والجاهثة : ماذا قدّمت الثقافة للإنسان الحجر الصّحيّ؟ ترنيمات
15	د.سالم المساهلي	يا سيّد الأزمان في ظلال آية
16	إبراهيم بلكيلاني	أذفَع بِأَتِّي هِي أَحْسَن بهدهوء
18	د.ناجي الحجلوي	الإعجاز القرآني: المفهوم والإشكالات (4) المجاز في القرآن الكريم للتأمل
24	د.محمد إبراهيمي	أثر اللفّة في دلالة المعاني واختلاف الأحكام اللفّة أداة إدراك الأحكام (2-2)
28	عمر مرديف	نقاط على الحروف الدين والسّلطة في فكر عبد الرحمن الكواكبي ومقارنته بالفكر المعاصر (2-2)
32	د.محمد علواش	في الصميم الانحرافات المنهجية في تعامل الحداثيين مع النصّ القرآني فواصل
36	د. مصدق الجليدي	كيف يولد الشقاء؟ نفحات
39	د.عبدالحق معروز	واحدية الخالق ووحدة الخلق تحت المجهر
42	د.عزالدين عناية	مسلمو أوروبا والخيار الثقافي في العمق
45	نجم الدين غربال	التقنيات الرقمية بوابة نعم النّاس في المجال الصّحيّ وجهة نظر
50	د. حسن الجمني	غلاء أسعار البضائع في المساحات التجارية الكبرى و«ظاهرة الرّبح الخلفي» في تونس حديث في السياسة
53	د.عبدالله التركماني	الأمركية الإدارية الجغرافية الموسّعة لسورية المستقبل(1-2) القران والعلم
57	د.نبيل غربال	كيف نُصِبَت الجبال؟ الجزء الأول كلمات
62	محمد المرنيسي	ناطحو الصّخور فلسطين بوصلتنا
64	محمد أمين هبيري	تحرير القدس أو في أسباب زوال الكيان الصهيوني (1) قبسات من الرّسول
68	الهادي بريك	من هو محمّد صلّى الله عليه وسلّم؟ الحلقة 6 : أميته معجزته تمتمات
74	م.رفيق الشاهد	صرخة في صخب صامت (12) - الحلقة الأخيرة شخصيات
78	التحرير	وحيد الدين خان حديقة الشعراء
80	أحمد مطر	أعياد !..
81	عبدالله الرحيوي	يا ملحدًا

مسجد أوغندا الوطني - كامبالا - أوغندا



«مسجد النظامية» هو أكبر مسجد ومجمع إسلامي بُني على الطراز العثماني بنصف الأرض الجنوبي، يقع في «كيب تاون» بدولة جنوب أفريقيا. بدأ تشييد مسجد النظامية في 1 أكتوبر 2009 في مدينة جوهانسبرغ في (جنوب إفريقيا)؛ ليُفتتح رسمياً عام 2012.

شُيّد مسجد النظامية ليكون توعماً مُصغراً بنسبة 80% من مسجد السليمية الواقع في مدينة (أدرنه) التركية، وبُني مسجد النظامية على قطعة أرض مساحتها مائة فدان في منطقة (مدراد)، الواقعة بين العاصمة الإدارية (بريتوريا)، والمدينة التجارية الأولى (جوهانسبرغ)، ولدى المسجد أربع مآذن يبلغ



ارتفاع كلٍّ منها 55 متراً، ويُقدّم المسجد خدماته حالياً للمسلمين بصحنه الفسيح وطابقه الأرضي، الذي يحوي قاعة مؤتمرات وصالة للطعام. يتسع كل منهما لألف شخص، ويشعر الفرد في مسجد النظامية وكأنه في أحد المدارس الدينية العثمانية القديمة

يزداد المرء يقينا يوما بعد يوم بأن مجتمعاتنا العربية الاسلامية تعاني من تخلف كبير وانحطاط في جميع المجالات. وقد زادت الثورات والأحداث السياسية والاجتماعية المتسارعة التي حدثت في العشرية الأخيرة في تعرية هذا الواقع.

هذا الانحطاط هو نتيجة تراكمات أفكار وممارسات بدأت منذ تحوّل الحكم إلى ملك عضوض وهيمنة عائلات أو قبائل بذاتها على مقدرات الأمة وتحكمها في مصيرها وامتدت طيلة قرون من الزمن إلى وقتنا الحاضر بما في ذلك فترة الاستعمار المباشر وفترات «الدولة الوطنية» التي أنتجت حكما فرديا مستبدا (زعيمًا أو حزبا) وكرّست واقع الاستبداد والتبعية للمستعمر القديم بتعلة الاستفادة من قوته وتقديمه في مختلف المجالات.

ومع العوامل الذاتية التي تسببت في هذا الانحطاط ، هناك عوامل خارجية لا تقل أهمية ساهمت في ما نحن عليه من تخلف وهي عوامل متأتية من رغبة الهيمنة التي تحكم العقل الغربي المستعمر والذي حاول عبر مختلف الوسائل أن يكرّس واقع الانحطاط ويفرض نمطا واحدا للتفكير والعيش عبر عولمة كاذبة تدمر خصوصيات الشعوب وتنوع ثقافتها.

إنّ تغيير هذا الواقع إلى الأفضل أمر في غاية الصعوبة والتعقيد ويتطلب فهما عميقا لطبيعة مجتمعاتنا وللعوامل الداخلية والخارجية المؤثرة فيها. ولأنّ ثقافة الشعوب هي التي تحدّد قابليتها للتطور وقدرتها أو عجزها على استيعاب ما يحدث من حولها من تغييرات في مختلف مجالات الحياة ومن ثمّ التفاعل معها والتأثير فيها، فإنّ ما نعيشه اليوم في البلاد العربية وما نلمسه من تحولات محلية ودولية يدعو إلى ضرورة إحداث تغيير كبير في ثقافة هذه المجتمعات حتّى تتحرّر من العوامل المكبّلة لعملية نهوضها وتنميتها وتقدّمها. فالمسألة الثقافية كما يقول رضوان السيد «تقوم أساسا على البنية الثقافية للمجتمع حيث تحدّد هذه البنية إلى درجة كبيرة واقع ومستقبل المجتمعات العربية والاسلامية بل أن معظم الإشكالات تعود أساسا إلى أسباب ثقافية بالدرجة الأولى». فلا مجال لحدوث نقلة اقتصادية واجتماعية معتبرة للشعوب العربية تحرّرها من التبعية وتضمن لها موقع الفاعل في الحضارة بدل المفعول فيه من دون إيلاء المسألة الثقافية الاهتمام اللازم والانطلاق في إصلاح ثقافي عميق يشمل تغييرا في السلوك والاتجاه والقيم ومفاهيمنا للعمل، والوقت، والنظام، والسلطة، والمؤسسات.



«ليست قيمة الإنسان بما يبلغه،

بل بما يتوق البلوغ إليه...»

جبران خليل جبران



م. فيصل العش
«رئيس التحرير»
faycalelleuch@gmail.com

الثورة المفدورة



(أ)

لم تعرف «السياسة» في دول العالم العربي والإسلامي في تاريخها إلا الاستبداد والحكم العضوض. هي اغتصاب كرسي الحكم ومواقع النفوذ من طرف شخص أو قبيلة أو مجموعة ايدولوجية لتحقيق أكبر قدر ممكن من الامتيازات العينية والمعنوية وتوسيع رقعة ممتلكات العائلة الحاكمة وحواشيها من الذين كرسوا حياتهم لخدمة الحاكم والتّمعش من سلطانه ونفوذه. والحكم عند هؤلاء غنيمة، والسياسة هي البحث عن السبل الناجحة للسيطرة على مراكز النفوذ حتى يتسنى التحكم في الشعب والاستفادة من ثرواته. ومن أهم هذه السبل دمجة المحكومين واستمالة تأييدهم سواء عبر وسائل الإعلام التي كانت حkra على الحاكم أو عبر ماكينه رجال الدين. ولا تعتمد طريقة الساسة (الحكام) في تخاطبهم مع المحكومين على الحوار بل على قاعدة التّريغيب والتّرهيب وإن كان التّرهيب أحبّ إلى قلوب هؤلاء من التّريغيب.

اعتبر العمل السياسي طيلة قرون، حkra على الحكام وحواشيهم، وهو جريمة يُعاقب عليها غيرهم إن فكر فيها خارج أسوار فكر السلطان واختياراته، فيحاصر ويمنع عنه الاختلاط بالناس وتسلسط عليه أقسى العقوبات، فينكل به تنكيلا ويصّب عليه سوط عذاب. وإذا ضجر الناس وخرجوا إلى الشوارع مطالبين بحقوقهم في العيش الكريم اعتبر ذلك فتنة وضلالا وجوبها بالعنف والقوة.

(ب)

هذه «السياسة» لم تصنع دولا متقدّمة ولا أمة متّحدة، بل عجّلت بتدمير نقاط القوة فيها وأنشأت

منظومة قيم تخدم الاستبداد وتتكامل معه، فتسببت في تعفن الأخلاق وانتشار الفساد ونمو ثقافة مشوّهة تقوم على التملق للحاكم والتقرب إليه أو عدم الاهتمام بالشأن العام وغياب الضمير والتفريط في معايير أداء الواجب. كما تسببت هذه «السياسة» في الاحتقان الاجتماعي وزرع الحقد بين شرائح المجتمع وانتشار الفقر وزيادة حجم المجموعات المهمشة والمتضررة وخنق كل فكر مستنير يخالف هوى السلطان ومزاجه مقابل فسح المجال لخطاب سياسي يخاطب الغرائز لا العقول. والأخطر من كل ذلك ترسيخ «التبعية» للقوى الخارجية التي يستنجد بها الحكام لتمتين ركائز حكمهم في ظلّ انعدام الثقة بينهم وبين شعوبهم.

«عُتِبَ العمل السياسي طيلة قرون، حكراً على الحكام وحواشيهم، وهو جريمة يُعاقب عليها غيرهم إن فكّر فيها خارج أسوار فكر السلطان واختياراته، فيحاصر ويمنع عنه الاختلاط بالناس وتسلط عليه أقسى العقوبات، فينكل به تنكيلاً ويصب عليه سوط عذاب.»

هكذا كان الواقع في الدول العربية سواء في الماضي البعيد أو في الماضي القريب، وسواء قبل الاستعمار أو بعده. ففي تونس كمثل، وبعد ثلاثين عاماً من تجربة «الدولة الوطنية الحديثة» التي قادها بورقيبة وزملاؤه من السياسيين، فشلت البلاد في اللحاق بركب الدول المتقدمة واكتفت بموقع ضمن ما أطلق عليها مجاملة «دولا في طريق النمو» ولم تراوح مكانها في سلم الرقي والتقدم المنشود ولم تتحقق الأهداف التي رسمها بورقيبة في بداية حكمه والتي كان يطمح إليها التونسيون بعد خلع جبة «الاستعمار». وكان من نتائج هذا الفشل بروز نجم «بن علي» وانقضاضه على كرسي قرطاج ليحكم البلاد طيلة ربع قرن بقبضة من حديد، ويمارس سياسة التهميش في أبشع مظاهرها وفي جميع أبعادها الاقتصادية والثقافية والتعليمية، لتأبّد حكمه وفرض سيطرته على مفاصل الدولة. فرضخ الشعب تحت نار الدل والهوان عقوداً.

ومن تحت الرماد خرج الشعب عن بكرة أبيه في أكبر ثورة سلمية في تاريخ البلاد، دون زعيم أو قائد ليواجه رصاص القنّاصة بصدور عارية. وضحت الأمهات بفلذات أكبادهن، فاستشهد منهم من استشهد، وجرح منهم من جرح، ولم يتزحزح الشعب من مكانه رافعا شعار «الشعب يريد» حتى تزلزلت الأرض تحت أقدام الطاغية، فوئى هاربا وانتصرت إرادة الشعب، فتحرر من قيوده.

(ج)

شعب عاش ربع قرن من الاستبداد والقمع والدل وشباب تربى على ثقافة بلا هوية، ونخبة انقسمت بين موالاتة تسوق لبين علي ورغباته وتبرر له عنفه واستبداده، ومعارضة مطاردة لا يحق لبعضها التواجد ولا يسمح لبعضها الآخر بالنشاط والالتحام بالناس، كل هؤلاء يجدون أنفسهم بين عشية وضحاها ينعمون بالحرية بلا قيد ولا حاجز، يحلمون بتحقيق شعار «الشعب يريد»، ذلك الشعار الذي رفعه الشباب بين 17 ديسمبر و14 جانفي ثم في اعتصامي القصب «1» والقصب «2»، وهو ما يعني سياسياً القطع مع سياسة «الزعيم والقطيع» وفسح المجال أمام مفهوم جديد للسياسة يكون «الشعب» فيه

الوسيلة والهدف. لكن ما حدث كان معاكسا تماما، فبالرغم من تغيير رأس النظام وفتح المجال أمام الجميع لاقتحام المجال السياسي، ومحاولة القطع مع الماضي والتأسيس من جديد وإنجاز تحوّل ديمقراطيّ في البلاد من خلال انتخاب مجلس تأسيسي وكتابة دستور جديد، إلا أنّ جزءاً كبيراً من الطبقة السياسية مدعوماً بالمنظومة القديمة (بقايا التجمّع والعائلات المتنفّذة ولوبيات الفساد) التي لم تتمّ محاسبتها، لم يسع إلى تغيير مفهوم العمل السياسي وانخرط في معارك طاحنة مع المنافسين للوصول إلى السّلطة، فانقسم مناخلو الأمس إلى حكّام ومعارضة وخاضوا صراعات مستمرّة ضدّ بعضهم بسبب ذاتية وانتهازية بعضهم وضيق أفق البعض الآخر وضعف بصيرته، فانحرفوا عن المسار، فكانت النتيجة منظومة

لقد تسبّب التمشّي الذي اعتمده الطبقة السياسيّة خلال السّنوات العشر الماضيّة في نفور غالبية الفئات الشعبيّة - وأبرزها الشباب - من الاهتمام بالشأن السياسيّ وخلقّت لديها قناعة بفساد السياسة والسياسيين بمختلف أطيافهم ومشاربهم، بل عاد حنين بعضهم إلى نظام الاستبداد الذي ثاروا من أجل تغييره والقضاء عليه.

حكم مشوّهة لا تعرف الاستقرار، مهمتها حماية لوبيات الفساد (1)

لقد تسبّب هذا التمشّي خلال العشريّة الماضيّة في نفور غالبية الفئات الشعبيّة - وأبرزها الشباب - من الاهتمام بالشأن السياسيّ وخلقّت لديها قناعة بفساد السياسة والسياسيين بمختلف أطيافهم ومشاربهم، بل عاد حنين بعضهم إلى نظام الاستبداد الذي ثاروا من أجل تغييره والقضاء عليه (2). ومما زاد في تعقيد وضعيّة منظومة ما بعد 2011 الوضع الاقتصادي الحرج الذي عاشته البلاد جرّاء غياب برامج التنمية الواضحة وتحكّم الفساد في مفاصل الدولة بالإضافة إلى الوضع الوبائيّ الخطير جرّاء انتشار فيروس كورونا. والأخطر من ذلك أن الطبقة السياسيّة التي تغافلت عن حالة الغليان الشعبيّ وتأزم الوضع الاجتماعيّ، انخرطت في صراعاتها وتحالفاتها المشبوهة تمسّكا بالسّلطة بالنسبة للبعض أو خدمة لأجندات إقليمية بالنسبة للبعض الآخر، فتعطّلت لغة الحوار بين الرئاسات الثلاث واشتدّ الصّراع بينها ممّا أدّى إلى شلل مؤسّسات الدولة، فكانت أحداث 25 جويلية وما تبعها من قرارات رئاسيّة منحت الرّئيس نفسه صلاحيّات الإشراف على السّلطة التّنفيذية بأكملها وتعطيل السّلطة التشريعيّة عبر غلق أبواب البرلمان وتجميد نشاطه.

(د)

هل ستعود تونس إلى مربّع حكم الفرد الواحد والزّعيم الأوحّد؟ ربّما، فعشر سنوات غير كافية لتغيير ثقافة النّخب بصفة خاصّة والشّعب بصفة عامّة، خاصّة في غياب أي برامج أو محاولات لتغيير

(1) تشكّلت هذه المنظومة بصفة صريحة بعد التوافق المغشوش الذي حصل إثر انتخابات 2014 بين النداء والنهضة وتواصل مع حكومة الفخفاخ ثمّ حكومة المشيشي.

(2) من مؤيّدات هذا الرأي تقلص نسبة المشاركة في الانتخابات وفوز الحزب الحرّ الدّستوري الذي ترأسه عبير موسى بعدد لا بأس به من مقاعد في البرلمان الجديد وهذا الحزب يتبجّح زعماءه بولائهم لنظام بن علي



إن الديمقراطية التي بشرت بها الطبقة السياسية ما بعد بن علي لم تؤثر إيجاباً في مستوى معيشة التونسيين ولم تقدم للمواطن العادي حلاً لمشاغله الاقتصادية والاجتماعية، فلم توفر الشغل للعاطلين ولم تجلب العدالة للمظلومين ولم تحارب الفساد والفاستين؛ فكان من السهل إقناع قطاعات واسعة من الناس بفشل المنظومة السياسية الحالية والتشكيك في أهمية الديمقراطية



تلك الثقافة. لقد عاش الشعب قروناً طويلاً تحت وطأة الاستبداد والحكم الفردي، تارة بغطاء ديني وطورا بغطاء وطني تحرري، ولم يعرف في تاريخه تداولاً على السلطة السياسية إلا بالوراثة أو بحد السيف، ولم يتعود على الاختيار الحر بل تمت تربيته على السمع والطاعة والإذعان لولي الأمر أو من ينوبه، لهذا لا يمكن بمجرد تغيير الدستور أو إصدار القوانين أو تنظيم انتخابات أن نغيّر الواقع. فما زال المجتمع بنخبه المختلفة تحت سيطرة ثقافة الاستبداد ويظهر ذلك جلياً من خلال التعبيرات الثقافية التي تحصل هنا وهناك وفي أسلوب التعامل بين الفرقاء السياسيين والفكرين المرتكز على مبدأ الإقصاء واعتماد العنف اللفظي والجسدي عوضاً عن الحوار والمجادلة.

لقد تميّزت العشرية الفارطة بالاهتمام الكبير بالمسار السياسي وتغييب المسار الثقافي. فسيطرة رجال السياسة على المشهد العام وتحكمهم في مواقع القرار واهتمامهم بتصفية حساباتهم القديمة جعل من التغيير الثقافي مسألة ثانوية. والكل يعلم أنّ نجاح أي مشروع للتغيير مرتبط بتلازم المسارات الثلاثة السياسي والثقافي والاقتصادي. فلم يكن من الممكن نجاح التحول الديمقراطي من دون تبني مشروع ثقافي ينسف ثقافة الاستبداد والأنانية والفوضى ويكرس بديلاً وطنياً قائماً على حب العمل والاستثمار في الوطن ومن أجل الوطن والاحترام المتبادل بين الدولة والمواطن وبين المواطنين أنفسهم.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الديمقراطية التي بشرت بها الطبقة السياسية ما بعد بن علي لم تؤثر إيجاباً في مستوى معيشة التونسيين ولم تقدم للمواطن العادي حلاً لمشاغله الاقتصادية والاجتماعية، فلم توفر الشغل للعاطلين ولم تجلب العدالة للمظلومين ولم تحارب الفساد والفاستين؛ فكان من السهل إقناع قطاعات واسعة من الناس بفشل المنظومة السياسية الحالية والتشكيك في أهمية الديمقراطية والكفر بها.

لن تعود الحياة السياسية إلى ما كانت عليه قبل 25 جويلية، هذا مؤكد. وقد يغلق قوس التحول الديمقراطي في تونس لفترة ربما تطول أو تقصر، ولكن هذا لا يعني النهاية.

على كل من يحلم بحياة عنوانها الحرية والكرامة وعيش عماده احترام حقوق الإنسان ودولة مدنية تقوم على المواطنة وتعمل على تحقيق النماء والعيش الكريم لكل تونسي وتونسية أينما كان، أن يستوعب الدرس جيداً ويستفيد من أخطائه وأخطاء الآخرين ويراجع كيفية تفاعله مع هموم مجتمعه ومشاغله.... وينطلق من جديد... و«أما الرّبْدُ فيذهبُ جُفَاءً وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ»



د عبد الرزاق بلعقروز
«كاتب وأكاديمي جزائري»
abderrezakbelagrouz@yahoo.fr



الثقافة والجائحة : ماذا قدّمت الثقافة لإنسان الحجر الصحي؟



مفتاح

ليست الجائحة مجرد حدث بيولوجي صحي، يضرب الجسد الإنساني فيُربك مبدأ تنظيمه ويهاجم منظومته المُناعية فقط، وإنما هو حدث ثقافي أيضا، يجعل الشَّخص يُعيد طرح الأسئلة عن معنى حياته، وعن أولوياته في الوجود، وما المعرفة التي يجب عليه أن يراهن عليها مستقبلا وكيف يبتكر أسلوبا ثقافيا جديدا في الحياة يحفظ له وجوده الجسدي ووجوده الثقافي أيضا. لأنه؛ إذا كان الوباء هو مظهر من مظاهر أثر الفيروسات على الإنسان، وبالتالي فمدلوله حسي مادي، فإن أثر الوباء في الحياة الثقافية مدلوله معنوي وروحي كذلك، هذا المدلول يظهر في علاقة بالذات الإنسانية بذاتها في عزلتها : تفكيراً وأخلاقاً وإبداعاً. ذلك أن لكل شخص تجربة خاصة في الحجر الصحي، والأفضل أن تكون تجربة إيجابية أكثر منها سلبية، وتحويلية أكثر منها سكونية، ومستقبلية أكثر منها حاضرة، وارتكازاً على هذا الملمح، فإننا نريد أن نستشكل عن قيمة الثقافة في ظل الحجر الصحي، وما هي المكاسب الإيجابية التي يمكن أن يستثمرها كل شخص لأجل تطوير ذاته وتطوير محيطه ومجتمعه؟

أولاً . الحجر الصحي عودة إلى الذات المنسية

معلوم أن الحجر الصحي ألزمتنا به مطالب الصحة العمومية، ومبدأ حفظ المجتمع من الانتشار السريع للمرض، فكان الاتجاه هو العزل الصحي أو الحجر المنزلي، و المعنى الثقافي هنا، هو « العودة



إلى الذات»، هذه العودة التي تقوم بدور يضاها دور حفظ الصّحة العموميّة، أي الدّور الثّقافي في تجديد الذات واكتشافها من جديد، و بيان ذلك أن الذات الإنسانيّة قبل الحَجْر كانت سائلة في المحيط الخارجي، باحثة عن التّمكّ لأشياء والجري خلف الاستهلاك والمزيد من البحث عن رغد العيش، وقد تكون هذه المطالب من دائرة الكماليات وليس من دائرة الصّروريات، من المشتهايات النّفسيّة وليس ما يحفظ الحياة وَيَسُدُّ الرّمق. فكانت النّتيجة هي نسيان الذات الحقيقيّة أي الذات الرّوحيّة التي تسكن في الإنسان، وما الجسد ومطالبه إلاّ الغلاف الخارجي الذي

الشّخص الذي يكون في حالة الحجر الصّخّي مسجون بالمعنى المادّي، ولا يقدر على إنقاذه من هذا الشّعور بالمسجونيّة إلاّ الثقافة، فالثقافة هي من أنقذتنا ولازالت من الموت الثّقافي بعد أن حاصرنا الموت البيولوجي



يكون في الغالب من الأمور العائقة عن الحياة الطّيبة: المتوازنة والرّاقية. لذا، كان الحجر الصّخّي عودة إلى ذواتنا المنسيّة، ونوع من الانعطاف على الذات بالتقليل من حمى الثقافة الاستهلاكيّة، وبالانفتاح على الوجدان الرّوحي الذي يتجلّى في: المشاعر و العواطف والإرادة و القيم. إنّ العزلة الصّحيّة هي أيضا تطبيب للنفس وتطهير لها من مكدّراتها التي تجتذبها في الخارج، وهي مكدّرات لأنّها تُنشط الحواس وتقوي مطالب المحسوسات على حساب دائرة المعنويات. وعليه فالحجر الصحي بات أسلوبيا جديدا في الحياة، يتفكّر في معنى الحياة الحقيقية التي ظهر أنها حياة ضعيفة منكسرة قد تأتيتها الأزمات من كل جهة . إن الحجر الصحي هو عودة إلى الذات المنسية، الذات بمعناها المعنوي والرّوحي، الذات التي تتذكّر كينونتها الوجودية التي حجبها المطالب التجارية والثقافة الاستهلاكية . فالحجر الصحي إذن، هو نوع من تعليق عضوية الذات في الوجود الخارجي، واكتشاف لذاتها المنسية، وعندما يحصل هذا الاكتشاف للذات المنسية يعيد الشخص ترتيب أولوياته في الحياة، بأن يعطي للقيم الروحية مثل الأمانة والإخلاص و التواضع و النّبيل والرحمة الدرجة الرفيعة و الشأن الجليل .

ثانيا .الثقافة أنقذت الإنسان من الموت في الحجر الصّخّي

إنّ البقاء في المنازل هو تحييز في مكان، أو هو جسم يتحييز في مكان مادّي مثل البيت أو غيره، هذا التّحييز في المكان من المنظور الصّخّي هو ضرورة لأجل منع انتشار المرض في الخارج، و معلوم أنّ المنظور الصّخّي ينحصر تفكيره في الجوانب المادّية للصّحة : تعقيم/كمامة / تباعد اجتماعي/... لكنّ الإنسان ليس مجرد كتلة مادّية تتحييز في مكان من أجل أن تبقى، فالغرض من وجود الإنسان في العالم ليس البقاء فقط، وإنّما الارتقاء بهذا البقاء إلى الأفضل دوما. من هنا فالشّخص الذي يكون في حالة الحجر الصّخّي مسجون بالمعنى المادّي، ولا يقدر على إنقاذه من هذا الشّعور بالمسجونيّة إلاّ الثّقافة، فالثّقافة هي من أنقذتنا ولازالت من الموت الثّقافي بعد أن حاصرنا الموت البيولوجي، فتحرّكت عجلة النّشر الإلكتروني والتّعليم عن بعد، وكانت المحاضرات العلميّة والاستمتاع بالفنون الجماليّة وإجراء النّقاشات في العالم الافتراضي هي الهواء النّقي الذي نتنفسه بعد أن تلوّث الهواء في الخارج بالفيروسات، ولو لم تكن

الثقافة لكنّا أمواتا وأجساما ماثلة من غير وجود سرّ المعرفة فيها.

وبهذا، يظهر أنّ الثقافة بمختلف أشكالها : التّعليم والمعرفة والحوارات والفنون عرفت وتيرة وسرعة في الحضور لم تعرفها من قبل . وبالتالي فالثقافة هي من أنقذنا من العزلة البيولوجية ومن الاكتئاب ومن الوحدة لأنّها فتحت أعيننا على المعرفة وعلى التّواصل الفكري وعلى التّعليم وتحفيظ القرآن الكريم .

ثالثا . الوباء أظهر التّضامن وبين الدّور الأطلاقي للثقافة

منذ بداية الوباء كانت المسؤوليةّ المباشرة في العلاج

موكلة إلى مؤسّسات الدّولة مثل المستشفيات، لكن مع امتداد الوباء لم تعد هذه المؤسّسات قادرة على تلبية جميع المطالب الصحيّة، فأخرج المجتمع أثقاله التّضامنيّة، فكان هذا الوباء عاملا من عوامل تقوية روح التّضامن في المجتمع؛ يظهر هذا في جهود الجمعيات المحليّة والوطنية وجهود رجال الأعمال الخيّرين الذين قدّموا إسهامات تضامنيّة ليست في دائرة الصّحة فقط، وإنّما في دائرة التّعاون على الخير وإطعام الفقراء وتوفير الحاجات. ولذا فقد كسبنا التّضامن والتّراحم والمؤاخاة، وهذه كلّها قيم رويّة وليست قيما مادّية لا تريد المنفعة لذاتها، وإنّما المنفعة للصّالح العام.

إذن، يمكن القول أنّ القيم الرّويّة التي تنتمي إلى عالم الثقافة، هي التي أسهمت وبدور لافت في تعزيز التّضامن وترسيخ المسؤوليةّ الاجتماعيّة، فالرّوح هنا التي تعمل وفق مبدأ الواجب والمبادرة والأجر هي التي بيّنت العمق الأخلاقي للمجتمع والعمق التّضامني حوله، وتأكيدا لهذا الإقرار، لا نجد تفسيراً لتضامن الجزائريين في الخارج وإرسالهم المساعدات إلى الجزائر بالمال وأجهزة الصّحة؛ إلاّ إيمانهم بالتّضامن والتّراحم والأجر كقيم رويّة لا نجدها في المجتمعات التي تسود فيها المنفعة الرّأسماليّة. لقد كان أنين الجزائري محمد زيات⁽¹⁾ «أنا مصاب بالسّرطان والأطباء قالولي بقالك شهر؛ أمّنتي نشوف الوالدة قبل ما نموت»، كفيل بتحرك الجزائريين في بريطانيا لأجل التّكفّل به وإرساله في طائرة خاصّة. وهذا الحدث هو أقوى تعبير عن قوّة التّضامانات الرّويّة في بناء المجتمعات والحفاظ عليها وليس الحسابات المنفعة التي باتت هي السّمة الغالبة في الحضارة الغربيّة وأجزاء أيضا من مجتمعاتنا اليوم. إذن يمكن القول أنّ الثقافة بقيمها الرّويّة كانت هي العامل الحاسم في التّعاون الاجتماعي خلال فترة الحجر الصحي، بتوفير الوسائل وكذا توفير الإعانات للمواطنين.

(1) مواطن جزائري، منعه الحجر الصحي وإغلاق المجالات الجوية من العودة إلى الجزائر في فترة الحجر الصحي، فتضامنت معه الجالية الجزائرية في لندن واستطاعت بتوفيق من الله أن توفر له طائرة خاصة وتمكن من رؤية أمه قبل وفاته

رابع. الثقافة قالت للإنسان : الأمانة قبل الحرّية

يجدر القول أنّ حالة هذا الوباء قد كشفت لنا، ليس عن نسبة الإصابات فقط، وإنّما كشفت لنا حجم الأمراض الاجتماعية والأخلاقية التي ظهرت فينا، بخاصة ضمن هذا الظرف، ونقصد هنا حالة خرق مطالب الحجر مثل البقاء في المنازل والالتزام بمواقيت الخروج والدخول، هذه الحالة تعبير عن ضعف ثقافة الانضباط في قلوبنا، لأنّ الذي لا يتقن الانضباط لا يجد نفسه إلاّ في التوحّش والتعدّي على حقّ الآخرين في الحياة. فالحياة قبل أن تكون ملكاً لأحدنا يتصرّف فيها كما يشتهي، هي أمانة ومسؤولية. وبُعْدُ الأمانة فيها يفوق كل الأبعاد الأخرى، لذا وجب علينا أن نغيّر نظرتنا إلى ذواتنا وإلى العالم من حولنا. فنحن في ظرف تتقدّم فيه قيمة الأمانة على قيمة

الحرّية، والتّراحم الاجتماعي على الفرديّة البخيلة، فوجودي وذاتي وجسدي ليست ملكاً لي أتصرّف فيها كيفما تشتهي نفسي، كأن لا ألتزم بمطالب الصّحة العموميّة ولا أعيّر أهميّة لعلاقتي مع غيري ولا لحقه في الاستمتاع بالحياة، كلاً فأنا مُؤتمّن على جسدي وذاتي، أراعهما بتوفير شروط الصّحة وبتقوية ثقافة الالتزام بالقانون الأخلاقي، وأوسّع من النّظرة التّراحميّة مع غيري، فغيري ليس موجوداً آخر، غيري هو أنا وأنا هو غيري، فمصيرنا في ظلّ هذا الوباء مصير مترابط وبقدر ما أنظر بعين الأمانة بقدر ما أصرف دواعي المرض عن نفسي، وغيري يصرفه عنّي عندما يكون هو الآخر ناظراً بعين الأمانة إلى ذاته وإلى غيره.

فالشّعور بالأمانة كقيمة حاسمة يحفظ لنا وجودنا ويقوي التّرابطات الاجتماعيّة ويبعث الأمل في المستقبل، فنحن الآن بسبب اختراقنا للحجر الصّحيّ والتّوهّم بأنّ هذا المرض أسطورة أو ألعوبة في يدي السّياسيين أو مشروع ربح اقتصادي لأيّ كان، يزرع في نفوسنا وبطريقة لاواعية إرادة خرق الحجر الصّحيّ و التّسبّب في المعاناة لأنفسنا ولأقاربنا وللنّاس من حولنا.

صحيح قد يرافق هذا المرض بعض الأسطورة أو يقات عليه السّياسيون أو يتاجر به عديمو الضّمير، إلاّ أنّ هذا ليس مسوغاً كافياً لخرق الحجر أو الاستهزاء بالمرض، فالاستهزاء هو الخطوة الأولى نحو الوباء وإحلال الكارثة، وجلّ الذين أصابهم المرض كان الاستهزاء به وقد يكون عن نيّة حسنة، هو من قادهم إلى تسليم المفتاح للفيروس كي يسكن أجسادهم ويسبّب لهم الضيق والألم والندامة .

لنكنّ إذن، ضمن هذا الظرف الحاسم شاعرين بقيمة الأمانة أكثر من أيّة قيمة أخرى، أجسادنا أمانة وجب علينا أن نرعاها، والأطفال وكبار السنّ والفقراء والمساكين والمرضى أمانات بين أيدينا لرعاية



حقوقهم علينا. فروح الأمانة هي الرّعاية والحفظ والتيقّظ، وعكس الأمانة الاختيان أو الخيانة لها، بأن نكسر الحجر الصّخّي ولا نرعى حقوق أجسادنا وأجساد غيرنا، فلا حرّية بغير أمانة ولا نجاحا فرديًا بغير نجاح اجتماعي. وإذ تعينت وبانت القيمة الحاسمة لقيمة الأمانة كأسلوب في الحياة وكرؤية إلى العالم، فالمطلوب منا في حال الحجر أن نستمر في شحذ ملكة الفهم لدينا، وأن نوسع من ثقافتنا عن طريق القراءة النوعية والموجهة، لترتيب الذات من جديد وإعمارها بالثقافة وتقوية ملكة الشعور بالقيم الأخلاقية من جديد.

خامسا. مابعد الجائحة: فيروز التّفكير بمجتمع بديل

لقد بيّن لنا الوباء الصّورة الحقيقيّة التي عليها العالم، من خلال الطّابع التّسلطي للعولمة التي أوهمت العالم أنّها قد وحدته اقتصاديًا، إلّا أنّها انكشفت باعتبارها عولمة تسلطيّة وغير تضامنيّة، وحتّى المؤسّسات الكبرى مثل الإتحاد الأوروبي قد انكشف باعتبارها مؤسّسة أوروبية فيها المركز والأطراف؛ وكيف أنّ الدّول المنخرطة فيه لم تجد منه التّضامن والتّعاون والتّرابط الذي نُودي به، حيث تبين أنّه اتحاد مائل ومنادى به أكثر ممّا هو مبرهن عليه واقعيًا.

إنّ سؤال المستقبل هو فيروز التّفكير بمجتمع بديل، مجتمع تتعرّز فيه التّضامانات الرّوحيّة لأنّها الأسس التي تحفظ المجتمع وتحفظ الفقراء والضعفاء والمرضى، فالارتباطات الرّوحيّة التّقافيّة هي الأكثر أهميّة من الخطابات السّياسيّة السّائلة. كما يجب صرف القول إلى قيمة المعرفة وأهمّيّتها في سلّم أولويّات التّنمية لدينا، ومفتاح النّهوض الاجتماعي وزيادة حجم الإنفاق على مؤسّسات الأبحاث تكويننا وتطويرنا وانفتاحنا، لأنّ ميزانية الأبحاث العلميّة لدينا جدّ هزيلة بالمقارنة مع ما تقدّمه الدّول التي تجعل من العلم قطب اهتمامها. فضلا على أنّ المعرفة باتت اليوم في حكم السلعة، فمن يبتكر المعرفة والمعلومة هو من يسود ويهيمن، ومن لا يبتكرها يبقى تابعا مجرد زبون أمام هذه المؤسّسات. ومشكلة بعض الذين يمسون بدوائر المؤسّسات في الدّولة، هذا الفراغ من الوعي بأنّ المعرفة هي العنوان الذي بات أداة للهيمنة، ومؤسّسات الدّولة إذا لم تتشرّب المعرفة وتكون وفق متطلّباتها الجديدة، تجد نفسها متأخّرة عن مسيرة الحركة العلميّة في العالم وبالتالي لقمة سائغة للتصرّف فيها وفي ثرواتها واستخفاف عقول أبنائها.

إنّ هذا الوباء قد حسم أمر مستقبل الإنسان إن هو أراد أن يسكن في هذا العالم وأن يعيش فيه بأمان وتوازن، العلم هو مفتاح هذا الباب، والميزانيّات الضّخمة التي تُصرف في مشاريع خارج العلم لا بدّ أن تعود إلى مكانها الحقيقي، وأن يكون الباحث هو محور الدّائرة ومركز المحيط، وأي مجتمع تسود فيه ثقافة العلم وتقدير العلماء والباحثين هو مجتمع يضع أركانه على أسس صلبة، وأيّ مجتمع لا يقدر البحث العلمي فسوف تأتية الأزمات والنّكبات من كلّ مكان. وأنّ القيم الرّوحيّة هي الأركان الكبرى التي يقوم عليها المجتمع ويتحقّق بفضلها بالتّضامانات الاجتماعيّة والتّوزيع العادل للإمكانات الحضاريّة للمجتمع.



د. سالم المساهلي
«شاعر وأديب تونسي»
salemsehli@yahoo.fr



يَا سَيِّدَ الْأَزْمَانِ

- مَاذَا فَعَلْنَا بِالنَّبُوءَةِ يَا تَرَى *** غَيْرَ التَّمَسُّحِ بِالْمَقَامِ وَبِالثَّرَى؟
- دَهْرَمِنَ الشُّكُوى يَفِيضُ مَرَارَةً *** وَبِلَادُنَا تَشْقَى .. وَتَلْتَجِفُ الْعَرَا
- تَوْحِيدُنَا شِرْكَ .. وَشَتَى سَعِينَا *** وَدُعَاؤُنَا سَهُوً .. وَدُعَاؤُنَا هَرَا
- الْأُمَّةَ الْعُظْمَى .. تُقَارِعُ عُمَرَهَا *** بِالْفِتْنَةِ الْكُبْرَى .. وَتُودِي بِالْعُرَى
- فَبَائِي وَجِدَانٍ نَحَاوِلُ وَصَلَهُ *** ذَاكَ الَّذِي .. جَمَعَ الْبُؤَادِي وَالْقُرَى؟
- ذَاكَ الَّذِي أَلْفَ السَّلَامِ رَحَابَهُ *** وَمَشَى حَيِيًّا .. بِأَشْرًا وَمُبَشَّرَا
- وَمُؤَلَّفَا بَيْنَ الْقُلُوبِ مَلَاظِفًا *** وَمُقَرَّبَا وَمُحَبَّبَا وَمُيَسَّرَا
- وَهُوَ الَّذِي وَثَقَ الْعَدُوَّ بِوَعْدِهِ *** وَهَوَّتْ إِلَيْهِ قُلُوبُ أَقْطَابِ الْوَرَى
- يَا سَيِّدَ الْأَزْمَانِ عَفْوُكَ، إِنَّنَا *** بَتْنَا سَبَايَا لِلْغُرَاةِ .. وَمَنْ شَرَى
- لَمْ نَدْخِرْ غَيْرَ الدَّعَاءِ، فَعُمَرْنَا *** هَذَا الضِّيَاعِ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ مَا جَرَى



إبراهيم الكيلاني
«باحث في المجال التربوي - الترويج»
belkilani@gmail.com



ادْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ



يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَبِي حَمِيمٌ﴾⁽¹⁾

يقول الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية الكريمة: «والمُرَادُ بِالْحَسَنَةِ دَعْوَةُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ عَلَى جَهَالَةِ الْكُفَّارِ، وَتَرْكِ الْإِنْتِقَامِ، وَتَرْكِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهِمْ، وَالْمُرَادُ بِالسَّيِّئَةِ مَا أَظْهَرُوهُ مِنَ الْجَلَافَةِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾⁽²⁾.

﴿ادْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ «يَعْنِي ادْفَعْ سَفَاهَتَهُمْ وَجَهَالَتَهُمْ بِالطَّرِيقِ الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ الطَّرِيقِ، فَإِنَّكَ إِذَا صَبَرْتَ عَلَى سُوءِ أَخْلَاقِهِمْ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَلَمْ تُقَابِلْ سَفَاهَتَهُمْ بِالْغَضَبِ وَلَا إِضْرَارَهُمْ بِالْإِيذَاءِ وَالْإِيحَاشِ اسْتَحْيُوا مِنْ تِلْكَ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ وَتَرَكَوْا تِلْكَ الْأَفْعَالَ الْقَبِيحَةَ»⁽³⁾.

﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا نُو حَظٌّ عَظِيمٌ﴾⁽⁴⁾ «قَالَ الرَّجَّاجُ: أَيُّ وَمَا يُلْقَى هَذِهِ الْفِعْلَةَ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى تَحْمُلِ الْمَكَارِهِ وَتَجَرُّعِ الشَّدَائِدِ وَكُظْمِ الْغَيْظِ وَتَرْكِ الْإِنْتِقَامِ»⁽⁵⁾. فالصبر على

(1) سورة فصلت - الآية 34.

(2) سورة فصلت - الآية 5.

(3) الفخر الرازي، تفسير الآية 34، سورة فصلت، <https://tafsir.app/alrazi/41/34>.

(4) سورة فصلت - الآية 35.

(5) الفخر الرازي، تفسير الآية 35، المصدر نفسه.

الجهالة وعدم الانجرار إلى الانتصار للنفس «لا يلقاها إلا ذو حظٍ عظيمٍ من قوّة النفس وصفاء الجوهر وطهارة الذات». ممّا يعني أنّ تهذيب الأخلاق والتدرب على كيفية التعامل مع جهالة وسفاهة وجلافة البعض يحتاج إلى وعي شديد وتدريب مستمرّ وتوفيق من الله، وعلى الدعاة التحلّي بذلك، ولا تكتمل صفة الداعية الحكيم المتأسّي بالرسول ﷺ إلاّ بذلك، وإنّ وجد في نفسه هوى يدفعه إلى ردّ الفعل بالطريقة نفسها، فسينقلب غضبه من غضب لله إلى غضب للنفس، ومن داعية قيم إلى داعية هوى، ومن محبّ للخير إلى محبّب في الشرّ.

ويعلم الله سبحانه وتعالى صعوبة بلوغ الإنسان هذه الدرجة، لذلك منحه جرعة تحفيزية كبرى فجعله ذا حظّ عظيم، ويقول ابن عاشور «والمراد هنا: نصيب الخير، بالقرينة أو بدلالة الوضع، أي ما يحصل دفع السيئة بالحسنة إلاّ صاحب نصيب عظيم من الفضائل، أي من الخلق الحسن والاهتداء والتّقوى.. وَحَظٌّ عَظِيمٌ، أي

من الأخلاق الفاضلة، والصبر من جملة الحظ العظيم لأنّ الحظّ العظيم أعمّ من الصبر، وإنّما خصّ الصبر بالذكر لأنّه أصلها ورأس أمرها وعمودها»⁽⁶⁾.

وأحسب أنّ هذه من صفات القادة الحكماء وهذه الفئة قلّة قليلة إن لم تكن نادرة الوجود خاصّة في مجالات الشّأن العام التي يتدافع فيها البشر أكثر. فقد أصبحت مجالات الشّأن العام مستباحة بالسيئة، وتوسّع انتشار معاملة الحسنة بالسيئة وانزلق المحسن وسُحب إلى لباس الفعل السيء، حتّى أصبحت صورة صاحب الحظّ العظيم تتقلّص في واقعنا، لصعوبة تحقّقها، وركنت النفوس إلى ردود الفعل الميسرة أمامها، وإشباع نزوعها الغريزي إلى الانتقام.

وهذا لا يعني البتة أنّ الغضب كلّ مدموم، فهناك غضب محمود وهو الذي ينتظر إشارة العقل والدين كما قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله: «فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحسّ من نفسه بضعف الغيرة وخسّة النفس في احتمال الذل والضميم في غير محلّه فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه»⁽⁷⁾. وذكر حجة الإسلام الغزالي في جزء المهلكات من الإحياء إضاءات جميلة في بيان حقيقة الغضب وأنواعه ومسبباته وعلاجه، ممّا لا يستغنى عنه، وقد سبق فيه بعض مقاربات علم النفس المعرفي.

إِنَّ تَهْذِيبَ الْأَخْلَاقِ وَالتَّدْرِبَ عَلَى كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ جِهَالَةٍ وَسَفَاهَةٍ وَجِلَافَةِ الْبَعْضِ يَحْتَاجُ إِلَى وَعْيٍ شَدِيدٍ وَتَدْرِيبٍ مُسْتَمَرٍّ وَتَوْفِيقٍ مِنَ اللَّهِ، وَعَلَى الدَّعَاةِ التَّحَلِّيِ بِذَلِكَ، وَلَا تَكْتَمِلُ صِفَةُ الدَّاعِيَةِ الْحَكِيمِ الْمُتَأَسِّيِ بِالرَّسُولِ ﷺ إِلَّا بِذَلِكَ، وَإِنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ هَوًى يَدْفَعُهُ إِلَى رَدِّ الْفِعْلِ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسَهَا، فَيَسْتَنْقَلِبُ غَضَبَهُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ إِلَى غَضَبِ النَّفْسِ، وَمِنْ دَاعِيَةٍ قِيمٍ إِلَى دَاعِيَةٍ هَوًى، وَمِنْ مُحَبِّ لِلْخَيْرِ إِلَى مُحَبِّ فِي الشَّرِّ.



(6) محمد الطاهر بن العاشور تفسير «التحرير والتنوير»، سورة فصلت، <https://tafsir.app/ibn-aashoor/41/35>

(7) حجة الإسلام الغزالي، إحياء علوم الدين 3/169 (6720)



د. ناجي الحجاوي
« أستاذ مساعد بالمعهد العالي
للحضارة الإسلامية بجامعة الزيتونة »
hajlaoui.neji@gmail.com

بهدوء



الإعجاز القرآني: المفهوم والإشكالات (الحلقة الرابعة: المجاز في القرآن الكريم)



عُدَّ المجاز في الفضاء البلاغي، أداة لغوية معنوية بتقويم جمال الخطاب وفنياته، تعبيراً وتصويراً وتأثيراً، حتى إذا أثبت المُفسِّر، من خلاله، القصد من الخطاب، كما بدا له في مستوى الأذهان، يصبح المعنى المراد وكأنه متحقق يُرى بالعيان. والمتكلم يحقّق تأثيره بواسطة هذه الأساليب وهذا الفعل يُسمّى بالسّحر الحلال⁽¹⁾. ولئن مثّل المجاز مسألة خلافية بين علماء المسلمين باعتبار أنّ المجاز لا يلجأ إليه إلا المضطرّ إذا ضاقت العبارة المتّصلة بالحقيقة عنه وبه، والله أبعد ما يكون عن ذلك⁽²⁾، فإنّ حضوره في النّصّ القرآنيّ حضور مكثّف، ومصدّق ذلك الآية 80 من سورة يوسف⁽³⁾، والآية 188 من سورة البقرة⁽⁴⁾.

(1) انظر ابن الأثير، المثل السائر، ج1، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، دار النهضة، مصر، ط1، دت، ص110 وما بعدها.

(2) ذكر جلال الدّين السيوطي في «الاتقان» أنّ المجاز موضوع خلافيّ بين علماء المسلمين وإذ أقره الجمهور فإنّ جماعة من الظاهرية والمالكية والشافعية قد أنكرته والشبهة في ذلك أنّ المجاز أخ الكذب والقرآن منزّه عنه. انظر السيوطي، الإتقان، ج2، النوع الثاني والخمسون: في حقيقته ومجازه، م س، ص47.

(3) «وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ»

(4) «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

وقد أشار ابن جنِّي إلى هذه الظاهرة بوضوح في قوله:
«اعلم أن أكثر اللّغة مع تأملها مجاز لا حقيقة»⁽⁵⁾.

لقد مثّلت الحقيقة اللّغويّة ما اصطُح عليه لدى المفسّرين بالظّاهر ومثّل المعنى المجازيّ ما ذهبوا إلى تسميته بالباطن، وإن لم يشمل الباطن كلّ ضروب المجاز. ويظنّ مقصد صاحب النّص، في كلّ الأحوال، هو الباطن الذي لا يتجلّى إلّا من خلال السّياق العامّ للآيات. وإذا كانت الحقيقة هي الأصل والمجاز هو الفرع، فإنّه لا يُعدّل عن الأصل إلى الفرع إلّا لفائدة⁽⁶⁾. وهذه الفائدة موظّفة في أغلب الأحيان لخدمة الإعجاز، باعتبار أنّ المجاز هو الإطار العامّ الذي ينتزل فيه الإعجاز أداة تعمّق الفرادة القرآنيّة في مستوى التّراكيب الجارية فيه،

ما يجعل منها معياراً يلتبس المتكلّم وفقه صحّة لسانه ويجعل إعجازها مستمرّاً عبر تقدّم الأزمنة. فكلّ أمر مُسنَد إلى الله بالنّسبة إلى المعتزلة إنّما هو يفوق قدرة الإنسان ويتخطّى دائرة مسؤوليّته. أمّا ما يتعارض مع ذلك فهو بالنّسبة إليهم مجاز ومتشابه. فكلّ ما يبدو متعارضاً مع فكرة التّنزيه لا يعتبرونه على الحقيقة أبداً، ومن ذلك تأويلهم لفعل «زَيَّنَ» المُسنَد إلى نائب الفاعل أنّه فعل من الشّيطان. وفي هذا المجال يورد الرّمانيّ قوله: «وإنّما زيّن الله تعالى الإيمان عند المؤمنين، وزَيّن الغواة من الشّياطين وغيرهم الكفر عند الكافرين»⁽⁷⁾.

والمهمّ في المجاز أنّه يفتح أبواب التّأويل أمام الخطاب بما يتضمّن من حرّيّة في اختيار الوجهة المرضيّة، في إنتاج المعنى، عبر الفهم وإعادة الفهم. ويضحى المعوّل في كلّ قراءة اعتماد الحجّة المقنعة بصحّة الرّأي ووجاهته. واسمع إلى حجّة الرّماني في تفسيره لقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ»⁽⁸⁾. كيف يذهب إلى أنّ معنى الاستحياء ليس جارياً في ضرب المثل بالحقير وهو البعوضة، وإنّما القصد هو أنّه لا يحلّ ضرب المثل بالبعوضة محلّ ما يُستحيى منه، فجاء القول من الله تعالى على أنّه لا يستحيى أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها⁽⁹⁾.

المهمّ في المجاز أنّه يفتح أبواب التّأويل أمام الخطاب بما يتضمّن من حرّيّة في اختيار الوجهة المرضيّة، في إنتاج المعنى، عبر الفهم وإعادة الفهم. ويضحى المعوّل في كلّ قراءة اعتماد الحجّة المقنعة بصحّة الرّأي ووجاهته

(5) ذكره السيوطي، في المزهرة في علوم اللّغة، ج1، م س، ص ص 357، 358.

(6) انظر ابن الأثير، المثل السائر، ج1، م س، ص 89.

(7) الرّماني، التّفسير، سورة الأنعام 6، الآية 122، م س، ص 92.

(8) سورة البقرة 2، الآية 26.

(9) الرّماني، التّفسير، م س، ص 21.

ليس خافياً على الدارس أن المعتزلة قد اتخذت قضية المجاز معبراً للوصول إلى المبادئ العقديّة المتعلّقة بالعدل والتّوحيد. وعندئذ، انقسمت الآراء حول الإعجاز القرآنيّ فمنهم من حصره في إخبار القرآن بالغيب. ومنهم من عده في نظمه. ومنهم من جعله في الصّرفة⁽¹⁰⁾. وقد تمحّص الإعجاز منذ إبراهيم النّظام (ت 221هـ) لإفادة الجوانب البلاغيّة في النّصّ القرآنيّ بمعزل عن مضامينه⁽¹¹⁾. وإذا حصر النّظام الإعجاز في القول بالصّرفة، فإنّ الجاحظ عمد إلى تعميم الإعجاز في جريانه على كلّ ما بدا غير معقول من الأعمال والصفّات في القرآن، وهو بذلك يقرّ بالعوامل الإلهيّة الخارقة للعادة ومجالات العقل لإثبات المحنة، فإذا سقطت المحنة انتفت الطّاعة، وكذلك عظيم الطّاعة مقترن بعظيم الثّواب⁽¹²⁾.

تركز الاهتمام بالإعجاز القرآنيّ على مقولة المجاز. وفي هذا الإطار، ظهرت ثنائيّة الظّاهر والباطن، ما دعا إلى تأويل الآيات على النّحو التّالي: إذا تعارض المعنى الظاهر مع المعنى المعقول تمّ اللجوء إلى التّأويل، ومثال ذلك تأويل كلّ آية يُشتّم منها معنى له علاقة بتحيّز الوجود الإلهي.

والقرآن عند المفسّرين يتميّز بأمرين: البيان الباعث على التّفهيم، أولاً، والإعجاز، ثانياً. والإعجاز هو الحجة الرّئيسيّة إذ يشارك القرآن العرب في الفصاحة والبيان ويطالبهم بمباراته، إن استطاعوا. وفراة القرآن أنّه ورد منسجماً مع قواعد اللّسان العربيّ وخارجاً عنها في آن. وهذه الفراة في الصّيغة جعلت القرآن يتجاوز الحدود القبليّة والعربيّة والقوميّة اللّصيقة بالعربيّة والعروبة إلى معانقة الفطرة الأدميّة انسجماً مع الدّيانات الإبراهيميّة وقداسة البيت العتيق ذي الأبعاد التّاريخيّة والإنسانيّة. ولا تفوت الدّارس، في هذا المقام، الإشارة إلى الآراء النّقديّة العليقة بمقولة الصّرفة. ولعلّ من أهمّها ما ذكره السيوطيّ من أنّ القول بالصّرفة يزول بزوال زمان التّحدّي⁽¹³⁾. وما اتّخذ الجرجانيّ من موقف يتمثّل في أنّ هذا القول يُرجع الإعجاز إلى أمر يندّ عن حدود النّصّ، وهي القدرة الرّبانيّة الصّارفة عن الإتيان بالمثل. وبالإضافة إلى هذا، فإنّ القول بالصّرفة يثير مأزقاً يتمثّل في أنّ النّاس في حدّ ذاتهم قادرون على أن يأتوا بمثل ما قاله الله تعالى، لولا سلطة الصّرفة. زد على ذلك أنّ واقع البلاغة العربيّة لم يشكّ من عجز أو قصور تحت تأثير الصّرفة. ولا أوضح، حسب رأي الجرجاني، من الوقوع في التّناقض

(10) يتعلّق القول بالصّرفة بإبراهيم النّظام أوّل القائلين بها ومعناها: «أنّ العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن، ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه، ونسجه ولفظه، بل كان لأنّ الله صرفهم عن أن يأتوا بمثلته». انظر الجاحظ، الحيوان، ج2، م س، ص 230. وقد أورد أبو الحسن الأشعري عن النّظام ما يلي: «والآية الأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، أمّا التّأليف والنّظم فقد يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أنّ الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم». انظر أبا الحسن الأشعريّ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين، ج1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة، 1969، ص 296.

(11) V. G.E, Von Grunebaum, l'DJAZ, thome3, encyclopédie de l'islam, nouvelle édition, 1990 , pp 1044,1046

(12) الجاحظ، الحيوان، ج6، م ن، ص 270.

(13) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج 2، م س، ص 151.



لو أنّ القرآن قد جمع بين التّحدّي والصّرفة⁽¹⁴⁾. فمازق القول بالصّرفة أنّ القدرة على الإتيان بغيره ممكن، ولكن الإعجاز مائل في صرف المتحدّين، وهذا لا يُعتدّ به.

وإذ ألح أبو عبيدة، كغالبية المفسّرين، في كتابه «مجاز القرآن» أنّ القرآن عربيّ وأنّ الله أرسل محمّداً بلسان قومه⁽¹⁵⁾، فإنّ الذي فاتته هو أنّ من معاني مادّة «عرب» هو الاكتمال والصّفاء والنّقاء والحسن، بناءً على المعنى الذي يفيد به القرآن بما اجترحه لنفسه من معجم خاصّ به، واسمع إلى الآية: «عُرْبًا أْتْرَابًا»⁽¹⁶⁾، التي انتبه الزّمخشرّي في شرحها إلى أنّ مادّة عرب تعني الحسن والاكتمال ولا علاقة لها بجنس العرب⁽¹⁷⁾.

إنّ أهمّ وظيفة اضطلعت بها البلاغة التّقليديّة، إنّما هي وصف الطّرق الخاصّة باستعمال اللّغة وتصنيف الأساليب بحسب تمكّن مستعملها من التّعبير عن الغرض تعبيراً يتجاوز الإبلاغ إلى التّأثير والإقناع بالقول، وحينئذ أصبحت البلاغة ضمان البلوغ إلى المقاصد بأيسر الطّرق وأقصرها



وقد تركّز الاهتمام بالإعجاز القرآنيّ على مقولة المجاز، وأوّل كتاب يحمل هذا العنوان هو «مجاز القرآن» لأبي عبيدة. وفي هذا الإطار، ظهرت ثنائيّة الظّاهر والباطن، المُشار إليها سلفاً، ما دعا إلى تأويل الآيات على النّحو التّالي: إذا تعارض المعنى الظاهر مع المعنى المعقول تمّ الالتجاء إلى التّأويل، ومثال ذلك تأويل كلّ آية يُشتمّ منها معنى له علاقة بتحيّز الوجود الإلهي. وهذا المنزع الوظيفي في فهم القرآن يجعل البلاغة تصنّف في إطار العلوم الوسائل الموصلة إلى فهم المصحف، وهو المقصد الأسنى الذي منه تستمدّ شرفها. يقول أبو هلال العسكري في هذا الصّد: «إنّ أحقّ العلوم بالتّعلم وأولاها بالتّحفّظ بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يُعرف إعجاز المصحف تعالى النّاطق بالحقّ الهادي إلى سبيل الرّشد المدلول به على صدق الرّسالة وصحة النّبوءة»⁽¹⁸⁾.

إنّ الجدير بالذّكر، هو أنّ الصّيرورة في علم اللّغة قد آل بالبلاغة إلى أن تكون لا مجرد علم من العلوم الوسائل فحسب، بل أضحت مجال الدّلالة نفسها. إذ أصبح المعنى ملاصقاً للمبنى إلى حدّ التّماهي. وتبعاً لذلك، أضحي كلّما تغيّر المبنى تغيّر المعنى. لقد كان الوعي باللّغة مشدوداً، في بداياته إلى مشغل أساسي هو ثنائيّة اللفظ والمعنى. أمّا وقد اتّحد الدّال بالمدلول فقد تجاوز الفكر اللّغوي العلاقة الطّبيعيّة بين طرفي العلامة. وعليه فقد تحوّلت اللّغة من أن تكون مجرد علم وسيلة إلى أن تصبح غاية في حدّ ذاتها

(14) انظر الجرجاني، الرسالة الشّافية، م س، ص 152.

(15) يقول أبو عبيدة « نزل القرآن بلسان عربيّ ميين، فمن زعم أنّ «طه» بالنّبطيّة فقد أكبر وقد يوافق اللفظ ويقاربه ومعناها واحد وأحدهما بالعربيّة والآخر بالفارسيّة أو غيرهما». أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج 1، م س، ص 17.

(16) سورة الواقعة 56، الآية 37 .

(17) الزّمخشرّي، الكشّاف، ج 4، م س، سورة الواقعة 56، الآية 37، ص 332.

(18) أبو هلال العسكري، كتاب الصّناعتين الكتابة والشّعر، م س، ص 7.

ومعبرا لا بديل عنه لفهم كتاب الله، إذ هي المتضمنة لمقاصده ومعانيه.

إنَّ أهمَّ وظيفة اضطلعت بها البلاغة التَّقليديَّة، إنَّما هي وصف الطَّرق الخاصَّة باستعمال اللُّغة وتصنيف الأساليب بحسب تمكَّن مستعملها من التَّعبير عن الغرض تعبيرا يتجاوز الإبلاغ إلى التَّأثير والإقناع بالقول⁽¹⁹⁾، وحينئذٍ أصبحت البلاغة ضمان البلوغ إلى المقاصد بأيسر الطَّرق وأقصرها. وقد دأب الاهتمام اللُّغويَّ على البحث عن الخصائص المشتركة والكلِّيَّة الجامعة بين الشُّعر والقرآن، ما أفضى إلى إلحاق المبحث الخاصِّ بالمعاني بمجال البلاغة وإبعاده عن فضاء النُّحو، وهو أمر يدعو إلى التَّساؤل عن جدوى هذا الإجراء. ولا بدَّ أنَّ الإجابة كامنة في الرِّغبة المتزايدة في الإمساك بكلِّيات المعاني المضمَّنة في الرِّسالة الدِّينيَّة الجديدة.

تَمَّ الإقرار بإعجاز القرآن من جميع علماء المسلمين، ومنهم الرِّماني القائل: «إنَّ حكم القرآن هو في أعلى طبقات البلاغة، وأعلى الطبقات معجز لجميع العباد». ومن ثمَّ توزَّعت الآراء إزاء ظاهرة الإعجاز في اتجاهات عديدة: منها ما حصرت في البيان ومنها ما جعلته في معانيه. والاتِّجاه الغالب، هو الَّذي قال بالإعجاز الجامع بين الأسلوب والمعنى.

ولقد تمَّ الإقرار بإعجاز القرآن من جميع علماء المسلمين، ومنهم الرِّماني القائل: «إنَّ حكم القرآن هو في أعلى طبقات البلاغة، وأعلى الطبقات معجز لجميع العباد»⁽²⁰⁾. ومن ثمَّ توزَّعت الآراء إزاء ظاهرة الإعجاز في اتجاهات عديدة: منها ما حصرت في البيان ومنها ما جعلته في معانيه. والاتِّجاه الغالب، هو الَّذي قال بالإعجاز الجامع بين الأسلوب والمعنى. والَّذي لا مرأى فيه أنَّ عبد القاهر الجرجاني قد دَعَم هذا الاتِّجاه بجهوده العلميَّة البادية في كتبه المتنوعة. وسمع قوله: «إنَّ التَّحدِّي كان إلى أن يجيئوا في أيِّ معنى شاؤوا من المعاني بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف أو يقرب منه. يدلُّ على ذلك قوله تعالى: «قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ»⁽²¹⁾، أي مثله في النُّظم، وليكن المعنى مفترى لما قلتُم، فلا إلى المعنى دعيتُم ولكن إلى النُّظم»⁽²²⁾. لقد كان الهاجس الأكبر عند الرِّماني، في تفسيره، هو أن يبرز المناحي المعجميَّة والنُّحويَّة والبلاغيَّة البادية في القيل القرآنيِّ. والمطالع لهذا التَّفسير يلفي أنَّ البيان والفصاحة هما المؤدِّيَّان إلى الإعجاز الكامن في القرآن. ومن ثمَّ يبدو عجز كلِّ امرئ عن تجميع ما جُمع في الخطاب القرآنيِّ. إنَّ قيمة الاستعمالات اللُّغويَّة تنبع من جمعها لضروب الفصاحة والبيان والمعاني والإخبار بالغيب بأسلوب ذي خصائص مميَّزة جعلت له نظما متفردا.

(19) انظر حمّادي صمّود، التَّفكير البلاغي عند العرب، م س، ص 47.

(20) الرِّماني، التَّفسير، م س، ص 222. والجدير بالإشارة هو أنَّ الرِّماني يعتبر أنَّ دلائل القرآن تكون على وجهين: دلالة بيان، ودلالة برهان. فدلالة البيان: إظهار المعنى للنفس. ودلالة البرهان: تصحيح المعنى في النفس مجيبا بذلك عن سؤال: ما وجوه دلائل القرآن؟ انظر الرِّماني، التَّفسير، م ن، ص ن.

(21) سورة هود 11، الآية 13.

(22) عبد القاهر الجرجاني، الرِّسالة الشافية، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، م س، ص 141.



تركيا... الحدث وتغير الإحداثية «سامي الشعري»



مواجهة الفقر بين قصور التحويل الأصغر التقليدي و فرص التحويل الإسلامي

«نجم الدين غربال»



فلسفة الفعل التاريخي في القرآن الكريم «د. لطفى البكوش»



أثر اللغة في دلالة المعاني واختلاف الأحكام اللغة أداة إدراك الأحكام (2-2)



تقديم

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين. واتصف قوله ﷺ بالفصاحة والبلاغة والبيان، لذا ففهم القرآن والحديث، واستنباط معانيهما، والأحكام والدلالات الواردة فيهما، يتطلب العلم بلسان العرب وأسلوبه في البناء والتعبير، والإطلاع على اصطلاحهم في مفرداتهم وعباراتهم، وأساليب خطابهم واستدلالتهم. فاللغة العربية تتميز بقدرتها على الجمع، والتّمييز، والبسط، والتّوليد للمعاني والدلالات، وكذا بقدرتها على التّكّيف مع السّياقات، والجمع للمعاني المتعدّدة وللحكم والعبّر المختلفة في ذات المصطلحات، وللمصطلحات المتعدّدة الدّالة على نفس المعنى والمفيدة لنفس الدّالة، ما جعل العلماء يعتبرون العلم بها ركنا أساسيا في استنباط أحكام الشريعة، وشرطا ضروريا لفهم دلالات الآيات والأحاديث النبوية. وتحاول هذه المقالة (4) الوقوف عند بعض مميزات اللغة العربية وخصائص تعابرها، وتراكيبها في الفهم والاستنباط للدلالات، وما يترتب عليها من أحكام شرعية ضابطة لتصورات الإنسان وسلوكه وتصرفه في علاقاته بخالقه، ونفسه، ومحيطه، بما يؤكّد أنّه بالإضافة إلى أنّها أداة تواصلية، فإنّ اللغة العربية أداة فهم واستنباط للأحكام الشرعية. وقد بيّنا في الجزء الأول من المقال كيف أنّها أداة إدراك الأحكام وسنختم في هذا الجزء بتبيان كيف أنّ لهذه اللغة حظّا في اختلاف العلماء في استنباط تلك الأحكام.

(1) صدر الجزء الأول من هذه المقالة بالعدد 169 من مجلّة الإصلاح (أوت 2021) - www.alislahmag.com

اللغة والاختلاف في الأحكام

تبين أن استنباط الأحكام الشرعية يتطلب است فراغ الوُسع في استخراجها من دلالاتها التفصيلية المتمثلة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولفهم اللغة والتّمكّن منها قسط مهمّ في سلامة الوصول للحكم الوارد في النصّ القرآني، ولها حظّ وافر في أسباب الاختلاف الحاصل بين العلماء في الكثير من الأحكام الشرعيّة، ويرجع ذلك إما للاشتراك في الدلالات التي يحملها مصطلح واحد، كاختلاف العلماء في مفهوم القرء في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾⁽²⁾، وما ترتّب عليه من اختلاف في مدّة عدّة المرأة المطلقة من ذوات الحيض ولسن بحوامل، هل هي ثلاثة أطهار، أو هي الدّم نفسه، حيث

«قال قوم: هي الأطهار، أعني الأزمنة التي بين الدمين، وقال قوم: هي الدّم نفسه»⁽³⁾ ومثاله اختلافهم في اللّمس الموجب للوضوء بين الرّجل والمرأة، الوارد في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾⁽⁴⁾، هل هو مجرد اللّمس العادي أو هو الجماع، والسبب «اشترك اسم اللّمس في كلام العرب، فإنّ العرب تطلقه مرّة على اللّمس الذي هو اليد، ومرّة تكتني به عن الجماع»⁽⁵⁾.

ومن أمثلة المشترك الذي قد يترتب عليه اختلاف في الحكم العقلي مصطلح «جعل» الذي ورد بعدّة معانٍ منها «سمى» لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِناثًا﴾⁽⁶⁾، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإُنثَى﴾⁽⁷⁾، ومنها «أوجد» لقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾⁽⁸⁾، وبمعنى «النقل من حال إلى حال والتصيير، فتعدّى إلى مفعولين إمّا حسّاً كقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾⁽⁹⁾، وإمّا عقلاً كقوله تعالى: ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾⁽¹⁰⁾،⁽¹¹⁾ ثم بمعنى الاعتقاد كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾⁽¹²⁾.

يتطلب استنباط الأحكام الشرعية است فراغ الوُسع في استخراجها من دلالاتها التفصيلية المتمثلة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولفهم اللغة والتّمكّن منها قسط مهمّ في سلامة الوصول للحكم الوارد في النصّ القرآني، ولها حظّ وافر في أسباب الاختلاف الحاصل بين العلماء في الكثير من الأحكام الشرعيّة

(2) سورة البقرة، الآية 228

(3) بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن رشد / مؤسسة المعارف، بيروت، ط: 2006، ص: 522.

(4) سورة النساء، الآية 43

(5) المصدر نفسه، ص: 50.

(6) سورة الزخرف، الآية 19

(7) سورة النجم، الآية 19

(8) سورة الأنعام، الآية 1

(9) سورة البقرة، الآية 22

(10) سورة ص، الآية 5

(11) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص: 190،

(12) سورة الأنعام، الآية 100

ثم الاختلاف في صيغة الأمر والنهي المقتضية للوجوب والتّحريم، إذا تجرّدت من القرائن المحدّدة للصيغة والمقيّدة لها، إذ قد تطلق الصيغة على «الوجوب»: كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾⁽¹³⁾، والندب: كقوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ...﴾⁽¹⁴⁾، والإرشاد: كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا...﴾⁽¹⁵⁾، والإباحة: كقوله تعالى: ﴿فَاصْطَادُوا...﴾⁽¹⁶⁾، والتأديب كقوله ﷺ لابن عباس « كل مما يليك»، والامتنان: كقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ...﴾⁽¹⁷⁾، والإكرام: كقوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ...﴾⁽¹⁸⁾، والتهديد: كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ...﴾⁽¹⁹⁾، والتسخير: كقوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ...﴾⁽²⁰⁾، والإهانة: كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ...﴾⁽²¹⁾، والتسوية: كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا...﴾⁽²²⁾.

وأما صيغة النهي وهو قوله لا تفعل: فقد يكون للتحريم وللكرهية والتحقير، كقوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾⁽²³⁾، ولبيان العاقبة: كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾⁽²⁴⁾، وللدعاء كقوله ﷺ «ولا تكلنا لأنفسنا طرفة عين»، ولليأس: كقوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾⁽²⁵⁾، وللإرشاد: كقوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾⁽²⁶⁾ «⁽²⁷⁾»

وعليه، فإنّ الاختلاف في تحديد طبيعة الصيغة الواردة في الأمر أو النهي وهل المقصود منهما الندب أو الإرشاد أو الإباحة، أو التّحريم بالنسبة للنهي أو الكراهة أو التّبييس أو الدّعاء، يترتب عليه اختلاف

إِنَّ الاختلاف في تحديد طبيعة الصيغة الواردة في الأمر أو النهي وهل المقصود منهما الندب أو الإرشاد أو الإباحة، أو التّحريم بالنسبة للنهي أو الكراهة أو التّبييس أو الدّعاء، يترتب عليه اختلاف في طبيعة الحكم الثابت للمسألة الوارد في شأنها الدليل الشرعي، وهو ما انعكس في اختلافات العديد من الفقهاء من المذاهب الفقهية وداخل نفس المذهب، وذلك لتوسّل أغلبهم بلسان العرب في فهم النص واستنباط معانيه.

(13) سورة البقرة، الآية 43

(14) سورة النور، الآية 33

(15) سورة البقرة، الآية 282

(16) سورة المائدة، الآية 2

(17) سورة الأنعام، الآية 142

(18) سورة الحجر، الآية 46

(19) سورة فصلت، الآية 40

(20) سورة البقرة، الآية 65

(21) سورة الدخان، الآية 49

(22) سورة الطور، الآية 16

(23) سورة الحجر، الآية 88

(24) سورة إبراهيم، الآية 42

(25) سورة التحريم، الآية 7

(26) سورة المائدة، الآية 101

(27) المستصفي من علم الأصول، للإمام أبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 2010، ص: 324.

في طبيعة الحكم الثابت للمسألة الوارد في شأنها الدليل الشرعي، وهو ما انعكس في اختلافات العديد من الفقهاء من المذاهب الفقهيّة وداخل نفس المذهب، وذلك لتوسّل أغلبهم بلسان العرب في فهم النصّ واستنباط معانيه، كما اعتمد في المقابل الكثير من العلماء على الأداة اللغويّة بعلمها المختلفة لحلّ الاشكالات العلميّة، وضبط المسائل المعرفيّة المتعلّقة في الغالب بالحكم الشرعيّ للمسائل المختلف فيها قصد تحقيق حدود الخلاف وضبط أسبابه أو إزالته، ومن الأمثلة المفيدة في هذا الباب ما استدل به الإمام الشاطبي في الموافقات بتقييد مطلق الغضب في حديث رسول الله ﷺ « لا يقضي القاضي وهو غضبان»⁽²⁸⁾ باللفظ نفسه دون حاجة لتخصيص العقل للنص الشرعي باستثناء الغضب غير المشوش الذي لا

يلحق الضرر أو النقص بقضاء القاضي، حيث أثبت الشاطبي أن النص يحتمل التخصيص في لفظه دون الحاجة لمخصص، إذ قال « لفظ غضبان على وزنه فعلان، وفعالان في أسماء الفاعلين يقتضي الامتلاء مما اشتق منه، فغضبان إنما يستعمل في الممتلئ غضبا، كريان في الممتلئ ريا، وعطشان في الممتلئ عطشا، وأشباه ذلك، لا أنه يستعمل في مطلق ما اشتق منه، فكأنما الشارع إنما نهى عن قضاء الممتلئ غضبا، حتى كأنه قال: لا يقضي القاضي وهو شديد الغضب، أو ممتلئ من الغضب، وهذا هو المشوش، فخرج المعنى عن كونه مخصصا، وصار خروج يسير الغضب عن النهي بمقتضى اللفظ، لا بحكم المعنى، وقيس على مشوش الغضب كل مشوش»⁽²⁹⁾

خاتمة

إنّ اللغة معيار محدّد لعمليّة الفهم وسلامته، وشرط لا محيد عنه لإدراك معاني الأدلّة ودلالاتها، بل ومحدّد في اختلاف الأحكام بعد استقراءها واستنباطها، لذلك كان العلم بها من أسس النّظر والاجتهاد في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وهو ما يقوّي من أهميّة الإحاطة بها، والاطّلاع على قوانينها ومبادئها، وتدرّيس علومها ودروسها، بما يمكّن الأجيال من التّمكّن منها ومن فنونها وضروبها، لربط الصّلة بمصدر قيمهم وشريعتهم، وبمنبع الحكمة لديهم، وبمنهج النّظر، وديوان الجمال في البيان.

»

إنّ اللغة معيار محدّد لعمليّة الفهم وسلامته، وشرط لا محيد عنه لإدراك معاني الأدلّة ودلالاتها، بل ومحدّد في اختلاف الأحكام بعد استقراءها واستنباطها، لذلك كان العلم بها من أسس النّظر والاجتهاد في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وهو ما يقوّي من أهميّة الإحاطة بها، والاطّلاع على قوانينها ومبادئها، وتدرّيس علومها ودروسها

«

(28) صحيح البخاري (7158)

(29) الموافقات، مصدر سابق، م:1، ج:1، ص:63.



الدين والسلطة

في فكر عبد الرحمن الكواكبي ومقارنته بالفكر المعاصر (2-2)



ضمن التطرق إلى جدلية الدين والسياسي من منظور عبد الرحمن الكواكبي، وتناوله من خلال الاعتماد على الدين كآلية في ممارسة الاستبداد السياسي، انطلقنا في المقال السابق⁽¹⁾ بالتطرق لمفهوم الدين والاستبداد لغة واصطلاحاً ثم تعرّضنا إلى نظرة الدين للسلطة والحكم من منظور الكواكبي. وفي هذا المقال نختم بحول الله بحثنا بتفكيك التوظيف البشري للدين في سبيل تكريس الهيمنة والاستبداد.

الدين كآلية للاستبداد

يرى عبد الرحمن الكواكبي بأن الشرعية الدينية من أهم أسس السلطة السياسية، وعند تدقيقنا في مكونات هذه السلطة سنجد الثروة من أبرز تجلياتها، لذا لا غرابة أن نجد أيضاً من يعتبر نشوء طبقة أرستقراطية في المجتمعات الإسلامية وجدت في الدين طريقها إلى الثروة⁽²⁾.

وعلى كلّ فالكواكبي لم ينفك يربط الاستبداد، بما يهدف إليه من احتكار للسلطة والثروات، من استغلال الدين لتحقيق هذه الغاية، أي أنه يتم الانحراف بقيمه ومبادئه العليا والفضلى إلى غايات أخرى

(1) صدر الجزء الأول من هذه المقالة بالعدد 169 من مجلة الإصلاح (أوت 2021) - www.alislahmag.com

(2) حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر: بحث في التغيرات والأحوال، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط 2،

دنيئة غايتها التّحكم في الرّقاب وإشباع الأهواء والنزوات. يوضح الكواكبي أنّ أكثر آراء العلماء النّاظرين في التّاريخ الطّبيعي للأديان قد تضافرت على أنّ الاستبداد السّياسي متولّد من الاستبداد الدّيني، والبعض قال أنّه وإن لم يكن هناك توليد فهما أخوان، فما بنى عليه نتيجته قائم على مقدّمات ما نشاهد عليه المسلمين منذ قرون إلى الآن من استعانة مستبديهم بالدين⁽³⁾.

والرّكون إلى الدّين كآلية للاستبداد، في نظر عبد الرحمن الكواكبي، يتمثّل في استلهام السّياسي المستبدّ لما توصف به الذّات الإلهيّة من صفات، فإن كان الحكم والقهر ممّا ينفرد به الله سبحانه وتعالى وهو يقيم عدله ورحمته

في الخلق، فإنّ السّياسيين كذلك يبنون استبدادهم على أساس من هذا القبيل، فهم يسترهبون النّاس بالتّعالي الشّخصي والتّشامخ الحسي، ويذلّونهم بالقهر والقوّة وسلب الأموال حتّى يجعلونهم خاضعين لهم، عاملين لأجلهم، يتمتّعون بهم كأنهم نوع من الأنعام التي يشربون ألبانها ويأكلون لحومها وبها يتفخرون. وهذا التّشاكل بين القوتين ينجّر بعوام البشر، وهم السّواد الأعظم، إلى نقطة أن يلتبس عليهم الفرق بين الإله المعبود بحقّ، وبين المستبد المطاع بالقهر. فيختلطان في مضايق أذهانهم من حيث التّشابه في استحقاق مزيد من التّعظيم، والرّفعة عن السّؤال وعدم المؤاخذه على الأفعال⁽⁴⁾.

هذا التّدخل والالتباس بين ما هو إلهي وما هو من صفات المستبد السّياسي نجد أنّ أحد المفكرين المعاصرين وهو المغربي طه عبد الرحمن قد وظّفه عند حديثه عن صلة الدّين بالسّياسة من منظوره الخاصّ، إذ خلص إلى أنّ السّياسي ينهل من صفات «العالم العلوي غير المرئي» لشرعنة أو ممارسة تصرّفاتة السّياسيّة، إذ يؤكّد على أنّ الفاعل السّياسي يرفع العالم المرئي إلى مرتبة العالم الغيبي بمحاولته لتنزيل المبادئ المؤطّرة لعالم الغيب على العالم المرئي، وذلك من خلال مجموعة من الممارسات (المبادئ على حدّ تعبيره)، والمتجلية في نسبة الفاعل السّياسي الأشياء إلى نفسه وما ينتج عن ذلك من شعور بالملكيّة والسّيادة على ما ينسب إليه (وقد يكون ذلك قدرات، قرارات، منجزات...)، الشّيء الذي يحمله على حبّ التّسيّد على الغير، هذا التّسيّد الذي يصل ذروته عن طريق مبدأ السّلطان الذي يجعل به من ملكه ملكوتا واسعا، ومن قوّته جبروتا قاهرا، ومن شخصه ذاتا متألّهة موحّدة، متوسّلا لكلّ ما لديه من أجهزة لكي يبتّ في نفوس المحكومين حبّ الخوف، لكلّ هذا ينتج مبدأ التّنازع مع الغير حول مواقع القوّة والقرار⁽⁵⁾.

الرّكون إلى الدّين كآلية للاستبداد، في نظر عبد الرحمن الكواكبي، يتمثّل في استلهام السّياسي المستبدّ لما توصف به الذّات الإلهيّة من صفات، فإن كان الحكم والقهر ممّا ينفرد به الله سبحانه وتعالى وهو يقيم عدله ورحمته في الخلق، فإنّ السّياسيين كذلك يبنون استبدادهم على أساس من هذا القبيل،



(3) الكواكبي، المرجع نفسه، ص 19

(4) الكواكبي، المرجع نفسه، ص 20

(5) طه عبد الرحمن، روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الإثتمانية، منشورات المركز العربي الثقافي، الدار البيضاء المغرب، ط 2، ص

ويرى عبد الله العروي بدوره بأن كل دولة قامت في دار الإسلام، مهما بلغت من الاستبداد قد حافظت بالضرورة على قسم من الشريعة وحرصت على تطبيقه لأنه ضامن للنظام والأمن، فتطبق الشريعة داخل السياسة، وتجعل الدولة المستبدّة نفسها تراثاً شبيهاً من خلافة الرسول. وكلّ دولة، مهما خضعت للشّرع، تلجأ بالضرورة إلى القوّة وتعتمد العصبيّة لكي تدوم وتستمر⁽⁶⁾. ومن جهته يعتبر الكواكبي أنّ من بين ما تستعين به الدولة المستبدّة في إرساء نظامها، العمل على نشر الدّين بين رعاياها، على أنّه ليس أيّ دين، وإنما بمسوخ من الدّين وبعض أهله المغفلين على ظلم المساكين⁽⁷⁾، وقد سلط الكواكبي على فئة خاصّة من هؤلاء هم «الصّوفيّة» الذين جعلتهم - كما أشار - الإنعامات على زواياهم أن يقولوا: لا يكون

يرى عبد الله العروي بأن كل دولة قامت في دار الإسلام، مهما بلغت من الاستبداد قد حافظت بالضرورة على قسم من الشريعة وحرصت على تطبيقه لأنه ضامن للنظام والأمن، فتطبق الشريعة داخل السياسة، وتجعل الدولة المستبدّة نفسها تراثاً شبيهاً من خلافة الرسول. وكلّ دولة، مهما خضعت للشّرع، تلجأ بالضرورة إلى القوّة وتعتمد العصبيّة لكي تدوم وتستمر

الأمير الأعظم إلّا ولياً من أولياء الله، ولا يأتي أمراً إلّا بإلهام من الله، وأنّه يتصرّف، في الأمور ظاهراً ويتصرّف قطب الغوث باطناً. على أنّ الكواكبي يوسع دائرة هذه الفئات حينما يسأل من يسميهم بـ «فقهاء الاستبداد» من أين جاؤوا بتقديس الحكّام عن المسؤوليّة حتّى أوجبوا لهم الحمد إذا عدلوا، وأوجبوا الصبر عليهم إذا ظلموا، وعدوا كلّ معارضة لهم بغياً يبيح دماء المعارضين⁽⁸⁾.

وهكذا قد نصادف في التّفسيّرات الحديثة لبعض النّصوص الدّينية ما يوافق ما خلص إليه الكواكبي في تحليلاته، ومنها ما ورد في صحيح مسلم وعند الحاكم من الحديث التّالي: «عن أبي سلام قال: قال حذيفة بن اليمان قلت: يا رسول الله إنّنا كنا بشرّ فجاء الله بخير فنحن فيه فهل من وراء هذا الخير شرّ، قال: نعم، قلت: هل وراء ذلك الشرّ خير، قال: نعم، قلت: فهل وراء ذلك الخير شرّ، قال: نعم، قلت: كيف؟ قال: يكون بعدي أئمّة لا يهتدون بهدائي ولا يستنّون بسنّتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشّياطين في جثمان إنس قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك، قال: تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع». إذ من التّفسيّرات التي قدّمت له نجد التّالي:

* قال الشّوكاني في النّيل: قوله في جثمان إنس بضمّ الجيم، وسكون المثلث أي: لهم قلوب كقلوب الشّياطين، وأجسام كأجسام الإنس، قوله: وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع فيه دليل على وجوب طاعة الأمراء وإن فعلوا في العسف والجور إلى ضرب الرّعيّة وأخذ أموالهم،

* وقد ذكر شيخ الإسلام في منهاج السنّة: أنّ رسول الله ﷺ قد أخبر أنّه يقوم أئمّة لا يهتدون بهديه ولا يستنّون بسنّته، قلوبهم قلوب الشّياطين في جثمان الإنس، وأمر مع هذا بالسمع والطّاعة للأمير وإن

(6) عبد الله العروي، مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط10، س 2014، ص 131.

(7) الكواكبي، المرجع نفسه، ص 22

(8) الكواكبي، المرجع نفسه، ص 28

ضرب ظهره وأخذ مالك، فتبين أن الإمام الذي يُطاع هو من كان له سلطان سواء كان عادلاً أو ظالماً⁽⁹⁾.

فهل هناك توافق بين هذه التفسيرات وما خلص إليه الكواكبي حقاً؟ أم أن لأهل الاختصاص الشرعي منحي آخر في التأويل؟ قد يكون الجواب أرضية لمقال مقبل بحول الله تعالى.

خاتمة

إن هذه القراءة المتواضعة لفكر الكواكبي حول الجدلية التي تربط الديني بالسياسي بما يجعل من الدين آلية من الآليات التي يستعملها الطاغية لتكريس استبداده،

جعلنا نستنتج أن نظريته هذه لا تزال حاضرة في الفكر الفلسفي السياسي المعاصر، إذ تخلص الكثير من الدراسات الفكرية على أن العصر الحاضر يشهد تمكّن بعض الأنظمة السياسية والطبقات الحاكمة من استخدام الإسلام أداة فعّالة في تثبيت شرعيتها وسيطرتها، فقد أقامت بعض العائلات الحاكمة شرعيتها على الانتساب إلى النبي ﷺ، وتأسست في العديد من البلدان العربية أسر حاكمة على أساس تحالف قبلي-ديني متين كما يتجلى في الوهابية والسُنوسية والمهدية، أو على فرض الوصاية على المؤسسات الدينية والاستعانة بعلماء الدين الذين يبررون سياستها، أو بتلك الثقافة الدينية التي تدعو إلى طاعة أولي الأمر ونصرة السلطان وترك السياسة لأصحابها⁽¹⁰⁾.

فالدين، إذاً، كما أكد على ذلك علي مبروك، كان ولا يزال جزءاً من لعبة القوة السياسية وإحدى أدوات احتيازها، والإمساك بمفاتيحها في العالم العربي والإسلامي، وضمن هذا السياق، ثمة علاقة طردية بين تصوّر بعينه للدين، وبين حجم القوة التي يوفّرها للقائمين على توظيفه سياسياً، أي أنه كلما كان الدين حرفياً وقطعياً كان مقدار القوة التي يقدمها لهؤلاء الساعين إلى التخفي وراءه أكبر -بما لا يقاس- من تلك التي يوفّرها لهم حين يكون موضوعاً لتفكير مفتوح⁽¹¹⁾. لذا، فهناك من يرى⁽¹²⁾، ضرورة إعادة قراءة الدين وتاريخ السلطة، بهدف تحرير الدين من الأعياب السلطات ومنع السلطة من إمكانية استخدام الدين وتخريبه، والأهم إعادة قراءة النصوص الدينية، و«الأفكار الدينية» في تاريخيتها لجهة تعرية اللحظة والكيفية التي ولدت فيها، وبالتالي نزع القداسة عن كل «لا مقدّس» فيها، مع الحفاظ على روحية الدين وجوهره المتعالي.

(9) مصدره: <https://www.islamweb.net/ar/fatwa/107887>

(10) حلیم بركات، المرجع نفسه، ص 308.

(11) علي مبروك، مفهوم الشريعة: بين تسييس الإسلام وتحريره، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط المغرب، س 2017 ص 71

(12) محمد الكمزاري، صناعة الاستبداد باسم الدين، مجلة شباب التفاهم، العدد 74، ربيع الثاني 1442هـ / نوفمبر 2020م، الصادرة عن

وزارة الأوقاف والشؤون الدينية عمان، ص 7





د. محمد علوش
«أستاذ باحث في الفكر الإسلامي المعاصر - المغرب»
med.alouache@yahoo.fr



الانحرافات المنهجية في تعامل الحداثيين مع النص القرآني



تتسم القراءة المعاصرة بضياح الهوية والمعنى، وانحلال قضية المنهج، إذ تتسكّع في مسارب منهجية شتى، إيماناً بالتعددية، تحت شعارات تلاقح الأفكار وتكامل الأبعاد، وغيرها من هذه الدرائع، والقصد من وراء ذلك أن يصبح القرآن متنقّساً لكلّ قراءة ومرتعا لكلّ تأويل، ووعاء ينضح بالتلوين الذاتي؟ وإن شئت الشواهد من لسان القوم على هذا الضياع المنهجي، فلا شاهد أصدق من قول أركون: «إنّ القراءة التي أحلم بها هي قراءة حرّة إلى درجة التشرّد والتسكّع في كلّ الاتجاهات، إنّها قراءة تجد فيها كلّ ذات بشرية نفسها، سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة، أقصد قراءة تترك فيها الذات الحرة لنفسها، ولحركيتها الخاصة في الرّبط بين الأفكار والتصورات، انطلاقاً من نصوص مختارة بحرية من كتاب طالما عاب عليه الباحثون فوضاه، ولكنّها الفوضى التي تفضّل الحرية المتشرّدة في كلّ الاتجاهات»⁽¹⁾.

إنّ فشل المدرسة الحداثيّة العربيّة في تطبيق المناهج المعاصرة في فهم النصّ القرآني لا ينبع بالضرورة من طبيعة الإمكانيات المعرفيّة لتلك المناهج، بل كان في كثير من الأحيان بسبب الخلفيات الاعتقاديّة لبعض المفكرين، والتي جعلت من تلك المناهج مجرد أدوات للدعوة إليها واستعراض مدى استيعابها، فأساءت كثيرا لهذه المناهج، وحجبت كثيرا من الباحثين المسلمين عن الاستفادة منها.

(1) محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الساقي، ط4، 2007، ص76.

وكان في المقابل تقييم القارئ العربي المسلم للمناهج الغربية وجدواها في دراسة القرآن الكريم غالباً تقييماً غير موضوعي، لأنه كان يرتبط بالنتائج الفاشلة لمثل هذه التطبيقات، وهذا ما يبرر الحساسية من استخدام تلك المناهج في دراسة القرآن الكريم؛ إذ ينظر إليها تلقائياً بأنها رغبة علمانية وليست علمية! وهذا المعطى يكشف عن عدم حيادية هذه المناهج أو استقلاليتها مما يجعل استعمالها وتطبيقها محفوفاً بكثير من المزالق والمخاطر خاصة إذا علمنا أنّ موضوع التطبيق وأجراً هذه المناهج هو القرآن الكريم الذي يتميز بكثير من الخصائص والمميزات. كما أنّ المناهج لها ارتباط وثيق بالإشكال الحضاري الذي عاشه الغرب في تعامله مع كتبه الدينية المقدسة .

إن بعض المناهج الغربية تزخر بإمكانات جيدة في التحليل والتفسير، ومن شأنها أن تضيء خبايا النص القرآني، إلا أن تنزيلها على الوحي الرباني يقتضي مراعاة خصائصه التي تفرد بها عن غيره، وأعظمها خاصية ربانية مصدره ! ومن هنا لابد من الانتباه إليها أثناء استثمار هذه المناهج ومحاولة إسقاطها على النصوص القرآنية.

وإذا كان القارئ الحداثي في غاية الشبه بالمستشرقين،

والمشكلة لهم، والولع بما يصدر عنهم ويرد عليهم، والنسج على منوالهم في مراوغة النص، فالحادثة المقلدة -بتعبير طه عبد الرحمن- لا تملك مسوغ وجودها، وشرط صيرورتها وهو الإبداع في البحث والنظر.

إن بعض المناهج الغربية تزخر بإمكانات جيدة في التحليل والتفسير، ومن شأنها أن تضيء خبايا النص القرآني، إلا أن تنزيلها على الوحي الرباني يقتضي مراعاة خصائصه التي تفرد بها عن غيره، وأعظمها خاصية ربانية مصدره ! ومن هنا لابد من الانتباه إليها أثناء استثمار هذه المناهج ومحاولة إسقاطها على النصوص القرآنية.

إن أعظم الآفات المنهجية التي أصابت القراءة الحداثية، تتمثل في تجاهل الحداثيين النزعة الوضعية للمناهج الغربية، وهي حقيقة يسلم بها نقاد الغرب أنفسهم، وهذا التجاهل قاد إلى الاصطدام مع البعد الإلهي لمصدرية النص القرآني. ثم الجهل بطبيعة المناهج الغربية ومآلاتها، فهي تتعامل مع النصوص باعتبارها مادة لغوية محضة، لا علاقة لها بأي بعد غيبي أو تشريعي، وهذا من مداخل المماثلة بين النص القرآني والنص البشري.

وبالجملة، إنه يستحيل إبعاد المنهج وتجريده من مقولاته ونماذجه، إذ تربطه وشائج القرابة التي يصعب قطعها «لأنه تشكل في أحشاء النماذج التي عالجها، واكتسى باللحم من خلال الموضوعات التي ولدها»⁽²⁾، وهذا يقودنا إلى نتيجة مفادها «أن كل نموذج مجتمعي تدور في فلكه مجموع القواعد التي

(2) منير شفيق، الإسلام في معركة الحضارة، الناشر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1411-1991، ص 159.

لا تخرج عن دائرته، ولا عن الموضوعات التي جاءت نتائج تطبيقاته. فكلّ القواعد إنّما تعمل وفق النموذج الذي انطلقت منه، كما أنّ المقولات التي يكون المنهج قد أنتجها وسميت باسمه، تصبح كالطوق على عنقه، فلا يستطيع أن يتحرّر منها، أو أن يتحرّك في آية دراسة قادمة إلاّ من خلالها وبتأثيرها (...). وبهذا تؤخذ كلّ منظومة فكرية [في إطارها الكليّ] منهاجاً ونماذجاً ومقولاتاً»⁽³⁾، ولذلك يجب وضع المنهج في سلسلة ما يتضمّن من مقولات ونماذج، وليس ضمن مبادئه العامّة وتقنياته فقط، وهذا يتطلّب الانتباه إلى مسألة مهمّة وهي «علاقة المنهج بالنّمط المجتمعي الحضاري» الذي تُخلق في رحمه، وتترعرع في أحضانه «وذلك من أجل تحقيق الهدف الأول

إِنَّ أَمَّهُ مَا يَمَيِّزُ الْقَرَاءَاتِ الْحَدَاثِيَّةَ لِلنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ هُوَ سَعِيهَا الدَّوُّوبُ نَحْوَ إِحْدَاثِ قَطِيعَةِ كَلِيَّةٍ مَعَ كُلِّ مَنَاهِجِ التَّفْسِيرِ الَّتِي سَادَتْ فِي التَّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ بِدَعْوَى قَدَمِهَا وَرَفْضِ اسْتِثْمَارِ كُلِّ الْجُهُودِ وَالْفَهْمِ السَّابِقَةِ الَّتِي أَنْتَجَهَا عُلَمَاءُ الْإِسْلَامِ فِي تَعَامُلِهِمْ مَعَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .

من كلّ منهج وهو تحديد الأسس التي تساعد على قراءة النّمط المجتمعي الحضاري المعطى»⁽⁴⁾.

إِنَّ أَمَّهُ مَا يَمَيِّزُ الْقَرَاءَاتِ الْحَدَاثِيَّةَ لِلنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ هُوَ سَعِيهَا الدَّوُّوبُ نَحْوَ إِحْدَاثِ قَطِيعَةِ كَلِيَّةٍ مَعَ كُلِّ مَنَاهِجِ التَّفْسِيرِ الَّتِي سَادَتْ فِي التَّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ⁽⁵⁾، وَرَفْضِ اسْتِثْمَارِ كُلِّ الْجُهُودِ وَالْفَهْمِ السَّابِقَةِ الَّتِي أَنْتَجَهَا عُلَمَاءُ الْإِسْلَامِ فِي تَعَامُلِهِمْ مَعَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. وَهَذَا الرِّفْضُ كَانَ تَحْتَ دَعْوَى قَدَمِ هَذِهِ الْمَنَاهِجِ وَتَغْيِيبِهَا كَلِيًّا لِلْقَارِئِ مِنْ حَيْثُ هُوَ أَدَاةٌ وَطَرَفٌ أَسَاسِيٌّ فِي إِنتَاجِ الْمَعْنَى الَّتِي يَحْمِلُهَا النَّصُّ، فَهِيَ تَرَاهِنٌ عَلَى الْمَعْنَى الْمُتَعَدِّدِ وَالْمُتَنَوِّعِ بِدَلِّ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ مَعَ عَدَمِ الْإِخْضَاعِ أَوْ الْإِحْتِكَامِ إِلَى الْمُنْطِقِ وَالْأَصُولِ الْحَاكِمَةِ لِلتَّخَاطُبِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالَّذِي يَعَدُّ الْأَصْلَ فِي التَّفْسِيرِ.

كما أنّها لم تعرّ آيةً أهميّةً للإشكاليّات المنهجية التي يطرحها التّفسير، رغم أنّ عمليّة التّفسير تحكّمها مجموعة من الضوابط والمعايير وتخضع لمجموعة من الشّروط، يتداخل فيها الذاتي بالموضوعي والثّقافي بالتّاريخي واللّغوي بمستوياته الدّاخلية والخارجية، ورغم أنّ المناهج المخصّصة للتّفسير تظلّ مؤصّلة في كتب التّفسير وكتب علم أصول الفقه بشكل قويّ، فمع ذلك فإنّ هذه المناهج الجديدة في التّفسير عملت على تخطّي كلّ الأصول وتجاوز كلّ الضوابط والقواعد بدعوى التّجديد والعصرنة والتّحديث. فلقد عمل المناصرون لهذا الاتجاه بالدّفع بقوّة بمشاريعهم من أجل جعل هذه المشاريع الحداثيّة في قراءة النّصوص القرآنيّة وتأويلها البديل المنهجي المرتقب لكلّ الإنجازات العلميّة التي راكمتها جهود العلماء السّابقين واجتهاداتهم في تفسير القرآن الكريم.

وبالجملة، فإنّ الآفات المنهجية التي أصابت القراءة الحداثيّة، وضلّت بها عن طريق الفهم الموضوعي، يمكن تلخيصها في الآتي:

(3) منير شفيق، نفس المرجع، ص 160.

(4) منير شفيق، نفس المرجع، ص 161.

(5) ينظر، منى محمد بهي الدين إبراهيم الشافعي، التيار العلماني الحديث، دار اليسر، ط1، 1429، ص387-492.

- تجاهل الحدائين النزعة الوضعية للمناهج الغربية، وهي حقيقة يسلم بها نقاد الغرب أنفسهم، وهذا التجاهل قاد إلى الاصطدام مع البعد الإلهي لمصدرية النص القرآني.

- نظرتهم للمناهج الغربية على أنها حقائق ثابتة، لها القدرة على استنفاد إمكانيات النص دلاليًا ومقاصديًا، وقد ذكرنا أنّ هذه النظريات لم يكتمل نموها بعد، ورغم ذلك قد استوردها الحدائي العربي.

- الجهل بطبيعة المناهج الغربية ومآلاتها، فهي تتعامل مع النصوص باعتبارها مادة لغوية محضة، لا علاقة لها بأيّ بعد غيبي أو تشريعي. وإذا كان النص القرآني معجزاً في كلّ شيء، سواء بأبعاده البلاغية أو غيرها، فإنّ المناهج اللسانية تبقى قاصرة في الإحاطة بخفايا هذا

النص المعجز، ومن ثمّ كان إسقاطها في ساحة التأويل القرآني على علاتها وخلفياتها، مدخلا إلى المماثلة بين النصّ القرآني والنصّ البشري، مع أنّ الفوارق بينهما واضحة.

إنّ تجديد الخطاب التفسيري للقرآن المجيد لا يقتضي اقتفاء أثر الغرب ومناهجه وخطاه في كيفية تعامله مع نصوص الكتب المقدسة عنده، وإنّما المطلوب العمل على الاستفادة من التراث التفسيري الذي خلفه سلف هذه الأمة عبر الأجيال، وتوظيفه توظيفا واعيا متبصّرا، مع الانفتاح في نفس الوقت على المناهج التي أفرزها العقل الغربي ومحاولة الاستفادة من معطياتها، والحذر من السقوط في شراك مصطلحاتها البراقة، وتجنّب تطبيقها بشكل حرفي على نصوص الوحي، وبذلك يكون القارئ قد جمع بين الأصيل المنبعث من الذات، والمعاصر القادم من الثقافة الأخرى.

إنّ سبيل التحديث الحقيقي يفرض تدشين عصر حداثة ينطلق من الذات المسلمة، ويستلزم بالضرورة وعيا عميقا بحدود التواصل الحضاري والثقافي مع الشعوب الأخرى، وإدراكا لخصوصيات الذات وموقعها من الانفتاح على الآخر في ظلّ عولمة تعمل على نفي الخصوصيات وتغيير هوياتها، فإذا كانت فلسفة الحداثة والتحديث في الغرب قد ارتبطت بصراع له شروطه التاريخية والموضوعية الخاصة به، ثمّ كان مآلها ثورة على القيم والمطلقات والثوابت، فليس معنى ذلك أن تعمّم هذه التجربة على المجتمع العربي للحصول على التحديث!، فليس التاريخ العربي الإسلامي هو تاريخ الغرب لا في تصوّره الإنسان والكون، والحياة، ولا في رؤيته لعلاقة الدين بالدولة، ولا في فتوحاته وانفتاحه على تجارب الآخرين، لذا يمكن أن يقدم للإنسانية نموذجا آخر في التحديث والحداثة، تسوده قيم هذا التصور الفريد.



من الآفات المنهجية التي أصابت القراءة الحدائية، وضلت بها عن طريق الفهم الموضوعي، تجاهل الحدائين النزعة الوضعية للمناهج الغربية، واعتبارها حقائق ثابتة وجاهلهم بطبيعتها، فهي تتعامل مع النصوص باعتبارها مادة لغوية محضة، لا علاقة لها بأيّ بعد غيبي أو تشريعي.

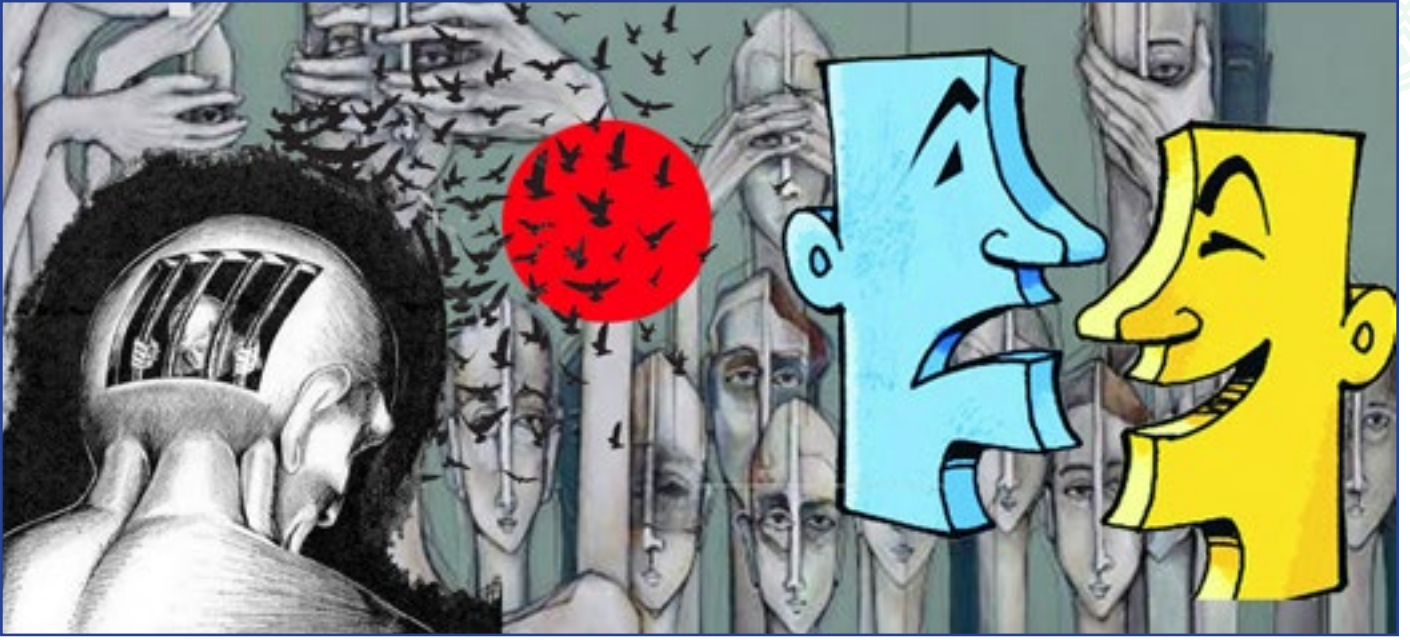




د. مصدق الجليدي
«أستاذ وباحث أكاديمي وكاتب»
msaddakj2@gmail.com



كيف يولد الشقاء؟



كثيرا ما يولد الشقاء من رغبة جارفة في السعادة. ولكنّها سعادة تختلط في ذهن البعض باللذة. ولأنّ الإنسان كائن مزدوج التركيب، مادّي وروحي، دون الفصل تماما بينهما في المنشأ، حتّى وإن انفصلا لاحقا في المال، فإنّه لا يرى فرقا كبيرا بين السعادة واللذة. السعادة من جنس الفرح، والفرح شعور شبه دائم، أي يستمر لمدة في الزمان، بخلاف اللذة، التي سرعان ما تنقشع. للصائم مثلا فرحتان: فرحة بإفطاره، وهذه لذّة، وفرحة بإتمام الفريضة نهاية شهر رمضان، مع قدر من الأسف على فراقه، وهذه سعادة. واللذة هي نوع من الألم المستحبّ أو المستلذّ، أمّا السعادة، فهي ارتياح عميق وراحة واسعة وبهجة غامرة.

هذه مقدمة تأملية لموضوع هذه الخاطرة.

وفي مقدمة أخرى من عالم المشاهدة. الأولى من عالم الأذهان، والثانية من عالم العيان.

عندما أترك السيارة، وأختار المشي على القدمين، تتاح لي فرصة الانتباه لأحداث وظواهر وتفاصيل لا أعيرها اهتماما عندما أكون خلف المقود. من ذلك أنّني لما أشقّ النهج الذي يؤدي إلى الشارع الكبير في المدينة، وقت عودة تلاميذ الإعدادي والثانوي من الدراسة، ألمحهم في مجموعات صغيرة أو أزواجا ذكورا ذكورا أو إناثا إناثا أو ذكورا وإناثا.

ومما يشد انتباهي هو طريقة كلام الصبيّات والصبايا ومشيتهن، التي تفضح، مع بعض ما يتناهى



إلى سمعي، وأنا أمرّ بقربهن، لأتجاوزهنّ بخلاف، كثرة انشغالهن بعلاقتهن مع الجنس الآخر، من خلال التّواصل الكلامي (قال لي وقلت له)، بطبيعة الحال، لا يتعدّى الأمر التّبادل اللفظي والإشاري بملامح الوجه وإيماعات العينين، بما أنّ البيئتين بيئتان محافظتان، والسّياق سياق مقابلات عفويّة أو شبه عفويّة مدرسيّة.

وبما أنّي مصاب بداء التفلسف والتأمّل، عافانا الله وعافاكم من كلّ تفريط وإفراط فيه، فإنّي أسرح بعقلي بعيدا عن «اليومي» (والفلسفي يتعدّى من الالفلسفي، أي من اليومي). وما حدّثني به عقلي اليوم هو أنّ حديث بعض أولئك الصّبيّات والصّبايا هو مقدمة (غير حتميّة، وغير قريبة) لنوعيّة مصير بعض من البشر الذين لم يولدوا بعد. وأنّ بعض ما هنّ فيه اليوم من مشاعر

غامضة أو واضحة من الحبّ والهيام والرّغبة الحاملة المطمئنة أو المشوبة بالتردد والشك أو الخوف، هو مقدمة لقرارات واختيارات أو استجابات وانجرارات وانجرافات لعلاقات بأزواج المستقبل.

من تلك العلاقات الزّوجيّة الممكنة بدءا والمتحقّقة تاليا فعلا، تولد سير شقاء لبعض البشر، حتّى لا أقول للكثير منهم. فالمولود الجديد ليس بيده كلّ شروط الحياة التي سيحياها بصفة شخصيّة لحما ودما ونفسا وروحا.

فعند ولادته تكون كثير من تلك الشّروط قد تحدّدت بعدُ بمعزل كامل عن إرادته: أبوه الذي لم يختره ولم يختر شخصيته وبنيته الجسديّة وملامحه وعقله ومزاجه وأخلاقه ووضع الاجتماعى والنّفسي والمادّي ومستواه التّعليمي والثّقافي، وخبرته في الحياة... الخ. وأمّه وكلّ ما ذكرته عن هويّة الأب ووضعها، منطبقا عليها، والمكان الذي ولد به والمحيط الطّبيعي والاجتماعي، وإخوته وأخواته وأجداده وأعمامه وأخواله وبنو موطنه، ولغته الأمّ، وديانة كلّ من والديه، والوضعيّة الحضاريّة والاقتصاديّة والسّياسيّة والثّقافيّة للبلد الذي سيصبح له على الأرجح جنسيّة رسميّة في بطاقة التّعريف... والحقبة التّاريخيّة التي ولد فيها... الخ. كلّ هذا وغيره ممّا يصعب إحصاؤه، يجد الوليد الجديد، إنسان العالم، ومواطن البلد، وابن العائلة، نفسه، مرتها بكثير منه إلى الأبد.

فماذا سيبقى له من مصير ينحته بنفسه لنفسه؟!

أي أنّ الإنسان يولد ومطروح عليه مشروع كفاح ومقاومة لكلّ ما سيحدّ من النّحت الحرّ لكيانه. يولد بطبيعته معارضا. معارضا لكلّ القيود والأغلال التي تكبّل إرادته الحرّة. أي أنّه، لو كتب له مواصلة حياته بشكل سوي، سيمضي القسم الأعظم من حياته وهو يكابد من أجل استعادة ذاته المستلبة بالاحتماليّات الجينيّة والاجتماعيّة والتّاريخيّة وغيرها...



البعض فقط من المولودين الجدد سينضمّون لجحافل المكافحين والمناضلين من أجل إنسانيتهم، وبعض هؤلاء البعض سيتحمّلون مهمّة أعظم وهي النّضال إنسانيّة الإنسان، ومن هؤلاء يكون الزّعماء والأنبياء والرّسل والمصلحون والمفكّرون العظماء، وسيتخلّصون من الشّعور بالشّقاء بفضل إيمانهم القوي برسالتهم في الحياة، أمّا الغالبية فسيعيشون في شقاء مضاعف: الشّقاء لما هم فيه من غبن وحرمان، والشّقاء المتأتّي من الشّعور بالعجز عن التّغيير والتّطوير، افتقاداً لروح الثّورة والتّحرير والتّنوير.

وهناك صنف آخر يسعد بغفلته الكاملة عن شقائه المضاعف، وهؤلاء هم إلى صنف الأنعام والبهائم أقرب. كلّ هذا مرّ بذهني بصفة خاطفة ومكثّفة حدسا تأملياً وأنا أشاهد غفلة الصّبيات والصّبايا اللّاتي يتلذّذن بسرور وتبادل مناجاتهن عن مغامراتهن العاطفيّة القصيرة... ولكنّها غفلة لا بدّ منها حتّى يعمر الكون وتستمر قصّة الإنسان وملحمة الإنسانيّة فيه...

البعض فقط من المولودين الجدد سينضمّون لجحافل المكافحين والمناضلين من أجل إنسانيتهم، وبعض هؤلاء البعض سيتحمّلون مهمّة أعظم وهي النّضال من أجل إنسانيّة الإنسان، ومن هؤلاء يكون الزّعماء والأنبياء والرّسل والمصلحون والمفكّرون العظماء، وسيتخلّصون من الشّعور بالشّقاء بفضل إيمانهم القوي برسالتهم في الحياة، أمّا الغالبية فسيعيشون في شقاء مضاعف: الشّقاء لما هم فيه من غبن وحرمان، والشّقاء المتأتّي من الشّعور بالعجز عن التّغيير والتّطوير، افتقاداً لروح الثّورة والتّحرير والتّنوير.



انقر
إلى النص الكامل

الإصلاح

الجدريد ...

35 كتاباً
من سلسلة "كتاب الإصلاح"

"إسلام القرآن وإسلام التاريخ"

تأليف: د. عثمان مصباح





واحدية الخالق ووحدة الخلق



إنَّ الكون كَلَّهُ مخلوق صادر عن إرادة واحدة هي إرادة الله الواحد القهار، فبعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً صار خلقاً واحداً لخالق واحد؛ قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117]. وهي الحقيقة التي أخبر عنها القرآن الكريم في أوّل وحيه إلى خاتم رسله حيث قال جلّ جلاله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1]، فأخبر أنّ «أصل الموجودات كلّها واحد وهو الخلق الإلهي»⁽¹⁾ وقد دلّ النّص القرآني بما هو أصرح وأوضح دلالة ناصعة على واحدية الخالق جلّ في علاه في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: 16]. «فالعالم ككل يعود في وجوده إلى الله وحده بعد أن كان في طيّ العدم، وما من موجود يوجد على مرّ الدهر إلاّ والله هو المبدئ له، وليس ما يبدو من تتابع سببي في سلسلة الخلق إلاّ ناموساً إلهياً ترجع فيه تلك السلسلة إلى الخالق الحقيقي»⁽²⁾. وواحدية الخالق هذه تتجلّى أبعادها في وحدانية الإنشاء والإبداع، فالعالم؛ علويه وسفليه باعتبارها أشياء، مرجعه ومرده إلى الله وحده، تشهد كلّ ذرّة فيه ونواة به على خالقية الله سبحانه، وتشهد وحدة أجزائه، وترابط أركانه، وتناسق بنيانه على حكمة الرّبّ وعظمته ووحدانيته، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22]

وقد كان هذا العالم بكلمة كن كما أراد الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: 40]. وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ

(1) خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، بحث في جدلية النّص والعقل والواقع، لعبد المجيد النجار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الثانية: 1413هـ - 1993م، ص: 40.

(2) عبد المجيد النجار، المرجع السابق، ص: 46.



مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿يس: 82-83﴾. وهذا يدلنا على حقيقة الوحدة في منشأ الكون، ووحدة الإرادة الإلهية الخالقة، ووحدة النظم والتوأميس التي يجري عليها هذا الكون، ووحدة المصير.

فالنظام الكوني يشهد بوجود الإقرار بوجود الخالق البارئ المصور، وبوحدانية الواحد القاهر المدبر، لما فيه من دقة ترتيب، ووحدة تنسيق، ونظام سائق، وتصريف سابق، يخضع فيه الكلّ لسنن متكاملة متناسقة محكمة موحدة.

تتجلى واحدية الخالق في وحدانية الإنشاء والإبداع، فالعالم؛ علويه وسفليه باعتباره أشياء، مرجعه ومرده إلى الله وحده، تشهد كل ذرة فيه ونواة به على خالقية الله سبحانه، وتشهد ووحدة أجزائه، وترابط أركانه، وتناسق بنيانه على حكمة الربّ وعظمته ووحدانيته.



وكلُّ هذا العالم الواسع البديع: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ

كُلَّ شَيْءٍ ﴿[النمل: 88]﴾، والذي خلقه هو نفسه الذي خلق الإنسان وسوّاه ونفخ فيه من روحه. فالإنسان والكون المحيط به صادران عن الإله الواحد الأحد، مخلوقان له، مرتبطان في وجودهما بوحدة الربّ الخالق جلّ في علاه، وبذلك تتحدّد العلاقة بينهما وهي علاقة المخلوقية الواحدة والوجود الأصلي الواحد، وقد أوما القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة، والخصيصة الوجودية الجامعة بينهما بدلالة الاقتران بين خلق الإنسان والكون في مواطن من محكم التنزيل، ومن أمثلة ذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ، وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: 3-5]. فأخبر بخلق السماوات والأرض، وأعقب ذلك بالحديث عن خلق الإنسان، ثمّ صار إلى تعداد بعض مخلوقاته المترامية في هذا العالم المنظور، والكتاب المنشور، لتكون دلائل لهذا الإنسان تدلّه على الله وترشده إلى ما يلزمه من امتثال أمره، واتباع وحيه ولزوم شرعه، وتسخير كونه فيما فيه نفعه وصلاحه، وتيسير معاشه وارتقائه. ويتكرّر هذا المنهج القرآني في الربط بين خلق الإنسان وبسط الأكوان في آيات أخر كما في سورة الحجّ حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: 5]. فبعد أن عرض الله عز وجل خلق الإنسان من تراب وأبان عن أصله ومنشئه، استطرد إلى عرض مشاهد الخلق والإحياء في الأرض والنبات: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: 5]. وهكذا يتحدث القرآن عن القرابة بين أبناء الحياة جميعا، فيسلّكهم في آية واحدة من آياته، إنها للفتة عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة، وإنها الدليل على وحدة عنصر الحياة وعلى وحدة الإرادة الدافعة لها هنا وهناك في الأرض والنبات والحيوان والإنسان⁽³⁾. إنها إذا وحدة بين الإنسان والكون جامعها أن الكل مخلوق لله، مكون من مكونات هذا الوجود، وأن الإنسان جزء يندرج ضمن هذا الكون المعبود لله، وهو مجال خلافته وتفكره وتسخيره. وهذه الوحدة الكونية الوجودية تعطي الإنسان فهما جديدا للحياة والعالم من حوله، فتحكمه نظرة

(3) في ظلال القرآن، 4/ 2411.

الترابط الوجودي والاتحاد الكوني، واتفاق الخلق والمنشأ، ووحدة المأل والمصير.

ومن لطيف الوارد في سورة الأنبياء - وهي السورة التي أشارت إلى وحدة الرسل والرسالات - التنصيص على أن مرحلة الوحدة الكونية هي أولى مراحل هذا الوجود حيث قال جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ (4) فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿[الأنبياء: 30]. قال ابن عباس والضحاك والحسن وقتادة: «كانتا ملتصقتين ففصل الله بينهما» (5).

فالأصل في خلق السماوات والأرض أن جعلها الله عز وجل كتلة واحدة ووحدة مترابطة، ثم شاء الله لها أن تتفتق وتتمدد وتتوسع، فالاتصال والاتحاد والالتصاق هو مبدأ الوجود الكوني ثم انفصل عاليه عن أسفله، وتمايزت أجزاؤه، وتعددت أصنافه وصارت عوالم مختلفة وكواكب متنوعة وأما متجانسة مردّها إلى أصل واحد ووحدة ملتحمة هي خلق الله الذي منه بدأ الكون، قال محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله في معرض إيراده لأقوال المفسرين في تفسيره للآية: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾: «يحتمل أن يراد بالرتق اتحاد الموجودات حين كانت مادة واحدة... فكانت جنسا عاليا متّحدا ينبغي أن يطلق عليه اسم مخلوق، وهو حينئذ كليّ انحصر في فرد، ثم خلق الله من ذلك الجنس أبعاضا وجعل لكلّ بعض مميّزات ذاتية، فصير كلّ متميّز بحقيقة جنسا، فصارت أجناسا، ثم خلق من الأجناس مميّزات بالعوارض لحقائقها، فصارت أنواعا» (6).

إن هذه العوالم والألوان والأصناف والأجناس والأنواع، صادرة عن كينونة واحدة وكتلة متّحدة، وقد كانت في بدء خلقها وإنشائها مترابطة ملتحمة كقطعة واحدة، ثم فتق الله هذه الوحدة وفصل بين عوالمها وبتّ الحياة في أرجاء كلّ عالم بتقديره وتدبيره بميزان وحسبان، يشهد تناسق هذه العوالم وانتظامها وترابطها وحسن تركيبها وتناسب وضعها على وحدانية الخلق فيها: «إذ وحدة الأسلوب في كتاب الكون تدلّ على وحدة المنشئ، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: 3]. (7)

(4) الرتق: إحام الفتق وإصلاحه، يقال: رتقت فتقه حتى ارتتقت = التأم. العين، 95/2. عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء» صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: «وكان عرشه على الماء»، «وهو رب العرش العظيم» ح: 7418. 4/544.

(5) تفسير الطبري، 10/18. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، دار الفكر بيروت، 626/5. وروي عن سعيد بن جبير. الدر المنثور، 626/5. وعطاء وكعب. تفسير البغوي، 4/293. تفسير القرطبي، 11/283.

(6) التحرير والتنوير، 55/17. وهذا الذي بسط القرآن الحديث عن شيء منه في الآيات الأولى من سورة الرعد، فصرح بالأدلة الناهضة بمظاهر الموجودات المتنوعة الدالة على انفراده بالخلق والربوبية واستحقاقه لوحدة الألوهية من مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاْسِي وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ النَّمْرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رِوَجِينَ انْتَبِيْنَ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَرِزْقٌ وَنَخِيلٌ صُنَّوَانٌ وَعَٰبِرٌ صُنَّوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفُصِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْمَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: 3-4]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقُ حَٰوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ السَّحَابَ النَّقَالَ، وَيَسْجِبُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ...﴾ [الرعد: 12-13]. إلى أن ختم ذلك بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: 16]. فهذه المظاهر الكونية المتعددة والمتنوعة ناجمة عن كينونة واحدة وأصل واحد.

(7) خلافة الإنسان بين الوحي والعقل. ص: 46.



د.عز الدين عناية
«أستاذ علم إجتماع الأديان - روما»
tanayait@yahoo.it



مسلمو أوروبا والخيار الثقافي



تهزّ أوروبا أزمات دورية في علاقتها بمسليها، متنقلة من بلد إلى آخر ومتحوّلة من قضية إلى أخرى. وهي في الواقع أزمات نابعة من طغيان الخواء الثقافي، وتدني حضور المثقفين العاملين وسط هذه الجموع المسلمة، أو لنقل إشراكهم في تقييم الأمور وطرح حلول عملية لها. إذ ينبغي أن نقرّ أنّ العنصر الثقافي وسط ملايين المسلمين المقيمين والمستوطنين في دول القارّة، البالغ عددهم زهاء الثلاثين مليوناً، ضئيل وباهت، بفعل فتور التّعويل على ذلك الجانب الرّمزي أو الاستثمار فيه. فهناك دول قاحلة، بالمعنى الثقافي، في ما له صلة بالثقافة العربيّة، وهو ما انعكس ضبابية، وأحكاماً مسبقة، وخوفاً، وريبة، ونفوراً، بين المكوّنات الاجتماعيّة «الدّخيلة» و«الأصيلة».

والسؤال كيف السبيل للخروج من أسر التّوتر الدّوريّ في علاقة المسلمين الأوروبيّين مع واقعهم الغربيّ؟ بادئ ذي بدء يبقى حلّ المشكلة بأيدي مسلمي أوروبا، أي هؤلاء المستوطنين والمقيمين في أحضان القارّة، أكانوا ممن اندمجوا في سياق مجتمعاتها أو ممّن هم في طور الاندماج. إذ ثمة مراجعات وتساؤلات حول هويّة المسلمين الأوروبيّين، ولا نقول المسلمين في أوروبا لأنّ الغلبة ستؤول للشّقّ الأول، ينبغي تناولها بهدوء وواقعيّة. فالإسلام الديناميكي، وحده القادر على مراعاة الغيريّة، وطمأننة الآخر، وبتّ الثقة لديه. وهو الرّهان الفاعل والحاسم، حتّى لا تبقى الجموع المستوطنة في أوروبا عائمة. وليحاصر ذلك التّنافر لصالح

تألف وتأنس حقيقيين. فليست أوروبا وحدها أمام هذا الاختبار الحضاري الإشكالي، في استيعاب «الدّخيل» وهضمه، بل الجموع المسلمة أيضا هي طرفٌ رئيس في هذا التّحدّي، لذلك كلاهما فاعل ومفعول به.

فما من شكّ أنّ هناك هشاشة ثقافيّة طاغية في أوساط الوافدين من العالم الإسلامي نحو أوروبا، جعلت التّفاهم مع الغرب يوكل أمره إلى الصّمت والوجوم في معظم الأحيان، دون أخذ زمام المبادرة. وأخشى ما أخشاه على هؤلاء الوافدين من العالم الإسلامي أن يتحوّلوا إلى كتل صماء صامتة، بدون أثر، وبدون صخب، في مجتمعات تعجّ بالحركة.

إذ هناك ملايين متروكة سائبة وعرضة للنّهش،

من هنا وهناك، ولذلك نحن في أوروبا، مسلمين وغير مسلمين، ندفع ضريبة هذا الفراغ النّقافي الهائل والصّمت المطبق في مجال النّقافة ذات الصّلة بالمسلمين. وما دام ليس هناك استثمار دائم في تلك الرّساميل الرّمزيّة والمعنويّة، أو تعويل على أثرها، فسيستمرّ تناقض تلك الملايين مع واقعها الأوروبي، وستبقى عرضة للتّوترات الدّوريّة والمتكرّرة. فالشّراكة النّقافيّة التي يُفترَض أن تقوم عليها العلاقات بين دول العالم الإسلامي وأوروبا، عوّضتها خلافات سياسيّة، سرعان ما تُحوّل إلى خلافات دينيّة تُستدرج إليها الجاليات المسلمة تغريزًا، فيغدو كيان المسلم الأوروبي مسرحًا لتصفيتها. إذ ثمة قابليّة لدى مسلميّ أوروبا للتّوظيف الخارجي، جرّاء فقدان الاستقلاليّة مع بلدان المأتمن، على مستوى المخيال السّياسي وعلى مستوى المرجعيّة الدّينيّة. وفي ظرفنا الرّاهن نعيش فتورا في الرّهان على الإيلاف النّقافي والتّانس الحضاري بين المجتمعات الأوروبيّة وجملة من دول العالم الإسلامي. وما من استراتيجيّة لبناء إيلاف ثقافيّ يستوعب هذا النّوتر الحاصل والمتفجّر بشكل دوريّ.

فأحيانا قضايا محدودة تُهوّل وتُحوّل إلى قضايا رأي عام، بعيدا عن حقيقتها الفعلية. وما نعيشه هذه الأيام من قلاقل وتجاذب بين فرنسا والمسلمين على وقع الرّسوم الكاريكاتوريّة والاعتقالات الإرهابيّة هو أحد أوجه تلك التّوترات الدّوريّة. فليس هناك ازدياد عموميّ للإسلام ولا مسّ من مقام المصطفى (عليه الصّلاة والسّلام) على مستوى رسميّ؛ ولكن النّاس هنا يتصرّفون على نحو مغاير لما دأب عليه المسلمون في البلدان العربيّة والإسلاميّة. فحتى



ما من شكّ أنّ هناك هشاشة ثقافيّة طاغية في أوساط الوافدين من العالم الإسلامي نحو أوروبا، جعلت التّفاهم مع الغرب يوكل أمره إلى الصّمت والوجوم في معظم الأحيان، دون أخذ زمام المبادرة. وأخشى ما أخشاه على هؤلاء الوافدين من العالم الإسلامي أن يتحوّلوا إلى كتل صماء صامتة، بدون أثر، وبدون صخب، في مجتمعات تعجّ بالحركة



المقدّس، في الغرب، قابل للنقد والدّحض وحتى الطّعن والنّقض، وربّما استغلاله ضمن الدّراما والكوميديا، فالقوم لا يعرفون التّنويه الدائم ولا الثّناء الغامر. إنّها صيرورة الحداثة الغربيّة التي لا تعرف الولاء اللامشروط، وهو ما لم يدرك كنهه كثير من المسلمين.

وتأكيدا للخواء الثقافي الذي صنّفناه عنصرا رئيسا في التّوتر الحاصل نقول: أحيانا يجري الاستهلاك في البلاد العربيّة، وإلى درجة الابتذال، لأسماء ثقافيّة وعلميّة عربيّة تقيم في الغرب، وتُنسج الروايات والأساطير عن قصص نجاحها بعد احتضانها

وحسن وفادتها، ولا يُعار اهتمام ملايين سائبة لا تُعرف وقائعها ولا مصائرهما. تغيب بالفعل من الأبحاث السّوسولوجيّة والسّياسيّة ومن دراسات الهجرة ومن أحاديث السّاسة، وهو ما يدعو للتّساؤل: أين الاستغراب العربي؟ والحال أنّ ما يريده المسلمون في الغرب هو حديث صادق عن فشلهم وعن نجاحهم، عن حقوقهم وعن واجباتهم، بدون تهويل أو تبسيط، أو تقديس أو تدنيس. فمن يعرف أنّ ما يزيد عن ثلاثة ملايين مسلم يقيمون على التّراب الإيطالي، ويفدون من مشارق الأرض ومغاربها، لا يصدر منهم ديوان شعر، ولا رواية، ولا كتاب، ولا قصيدة، ولا فيلم، ولا مسرحيّة إلاّ ما ندر؟ ولا يمتلكون صحيفة، ولا مجلة، ولا إذاعة، أو حتّى موقع في الشّبكة العنكبوتيّة، يلتفون حوله. مع أنّ هؤلاء يغدون ويروحون في بلد ديمقراطي مفتوح على الثّقافة، ولا يعرف سلطة الرّقيب، أو بيروقراطيّة التّراخيص.

ولأنّنا نؤمن أنّ هناك أفقا ثقافيا رحبا تلتقي فيه الثّقافة الوافدة من البلدان الإسلاميّة والثّقافة الأوروبيّة، يحاول الطّهوريّون من الجانبين تضيقه وزرع ألغام التّوتر والصّراعات فيه، فنحن مع أوروبا من أجل تعزيز مناعتها وترسيخ خياراتها على جميع الأصعدة، لأنّ قدرنا في هذه القارة وليس خارجها. وليس باسم جذور واهية ينبغي أن نصنع تناقضا مع فضاء احتضننا، وبالتالي نحن أمام مشروع هائل في إعادة صنع هويتنا الإسلاميّة من جديد لتتلاءم مع واقع تعدديّ كوسمبوليتي. المشكلة أنّنا ما زلنا نستورد رموزنا ونماذجنا من وراء البحار، ونحاول استزراعها في تربة غير تربتها، وقد أضحت معايير أخرى تحكم واقعنا الغربي الذي بات يحتضننا.



نحن أمام مشروع هائل في إعادة صنع هويتنا الإسلاميّة من جديد لتتلاءم مع واقع تعدديّ كوسمبوليتي. المشكلة أنّنا ما زلنا نستورد رموزنا ونماذجنا من وراء البحار، ونحاول استزراعها في تربة غير تربتها، وقد أضحت معايير أخرى تحكم واقعنا الغربي الذي بات يحتضننا.





التّقنيّات الرّقميّة بوّابة نفع النّاس في المجال الصّحيّ



على وقع التّحول الرّقمي الذي نحياه ومُواصله لانشغالنا بما ينفع النّاس، وحملا لأمانة تعمير الأرض حفاظا على كرامة الإنسان. وبعد ما بيّنا كيفيّة توظيف ما أفرزته مُتغيّرات التّحول الرّقمي لفائدة فئات المجتمع المحرومة والمقصيّة، اقتصاديًّا وماليًّا وبالتّالي اجتماعيًّا وسياسيًّا، سواء من خلال تقنية البلوك تشاين (Blok chain) أو سلسلة الكتل، كضمانة للجودة وتفعيل للحوكمة⁽¹⁾ أو من خلال العقود الذكيّة (Smart Contrat) وما تمنحه من إدارة كفؤة للأصول ومصداقيّة للمعاملات⁽²⁾

وبعد ما بحثنا عن الكيفيّة التي يتطوّر بها أداء مؤسّساتنا سواء الاقتصادية منها أو الاجتماعية بما يُضاعف إنتاجها للسّلع وإسداؤها للخدمات ويُحسّن من نوعيّتها، من خلال إدارة المعرفة والذكاء الاصطناعي (Artificial Intelligence) رفعا للتّحدّيات وحماية من المخاطر⁽³⁾. نفتح في ما يلي بوّابة نفع النّاس في عصرنا الحالي، في المجال الصّحيّ تحديدا، مُجسّدة بالتّقنيّات الرّقميّة، مُعدّدين بعضا منها

(1) راجع مقال لنا بعنوان «البلوك تشين: ضمانة للجودة وتفعيل للحوكمة» ص 27 بمجلة الاصلاح الالكترونية العدد 166 (ماي 2021) www.alislahmag.com.

(2) راجع مقال لنا بعنوان «العقود الذكية إدارة كفؤة للأصول ومصداقية للمعاملات» ص 18 بمجلة الاصلاح الالكترونية العدد 167 (جوان 2021) www.alislahmag.com.

(3) راجع مقال لنا بعنوان «إدارة المعرفة والذكاء الاصطناعي رفعا للتّحدّيات وحماية من المخاطر» ص 26 بمجلة الاصلاح الالكترونية العدد 168 (جويلية 2021) www.alislahmag.com.

وأثرها في دعم خدمات الرعاية الصحية، ثم مُثيرين بعض الإشكالات التي تحول دون انتفاع كل الناس بها، في أفق إيجاد حلول لها وصولاً إلى انتفاعهم جميعاً دون استثناء.

1. التقنيات الرقمية دعماً لخدمات الرعاية الصحية

تعتبر التقنيات الرقمية في المجال الصحي إفراناً لتكنولوجيا المعلومات الصحية «HIT» التي تُعنى بمعالجة المعلومات وهندسة نظمها وتشمل أجهزة الكمبيوتر والبرامج التي تتعامل مع معلومات الرعاية الصحية والبيانات الصحية والمعارف والتي تتعامل مع معلومات الرعاية الصحية والبيانات الصحية والمعارف للاتصال واتخاذ القرارات في مجالات الرعاية الصحية والتعليم الصحي والبحوث الطبية الحيوية، تعاملًا يشمل التخزين والاسترجاع والمشاركة والاستخدام والتبادل قصد اتخاذ القرارات في مجالات الرعاية الصحية والتعليم الصحي والبحوث الطبية الحيوية.

تُعنى تكنولوجيا المعلومات الصحية «HIT» بمعالجة المعلومات وهندسة نظمها وتشمل أجهزة الكمبيوتر والبرامج التي تتعامل مع معلومات الرعاية الصحية والبيانات الصحية والمعارف تعاملًا يشمل التخزين والاسترجاع والمشاركة والاستخدام والتبادل قصد اتخاذ القرارات في مجالات الرعاية الصحية والتعليم الصحي والبحوث الطبية الحيوية.

والمعارف، وبمساهمات كل من علوم الحاسب والرياضيات وعلم النفس⁽⁴⁾. ووفقاً لتقرير صدر عام 2006 عن وكالة أبحاث الرعاية الصحية وجودتها (AHRK)⁽⁵⁾، فإنّ الاستخدام الواسع والمستمر للتقنيات الرقمية في المجال الصحي سيؤدي إلى منافع عديدة على مستوى الرعاية الصحية منها:

- تحسين الجودة وزيادة الكفاءة والدقة الطبية والإدارية
- منع الأخطاء الطبية وتقليل التكاليف ووقت العمل غير المنتج أو الخمول
- توسيع الوصول إلى الرعاية الصحية بأسعار معقولة
- تمديد الاتصالات في الوقت الحقيقي للمعلوماتية الصحية بين المتخصصين في الرعاية الصحية؛
- كما تعمل التقنيات الرقمية في المجال الصحي على تحسين رعاية المرضى بشكل فردي بالإضافة إلى جلب فوائد صحية عامة من بينها:
- الاكتشاف المبكر لتفشي الأمراض المعدية في جميع أنحاء البلاد
- تحسين تتبع إدارة الأمراض المزمنة
- تقييم الرعاية الصحية على أساس القيمة الممكنة من خلال جمع معلومات محدّدة عن الأسعار والجودة التي يمكن مقارنتها.

(4) RAND Healthcare: Health Information Technology: Can HIT Lower Costs and Improve Quality? Retrieved on July 8, 2006

(5) <https://www.abbreviationfinder.org>

وقد تعددت التقنيات الرقمية في المجال الصحي وتنوعت لتشمل آلات جديدة وتمكن من العلاج عن بعد باستعمال تطبيقات الهاتف الجوال والشبكة الالكترونية الخاصة بتحميل المعلومات مثل قراءة نسبة جلوكوز الدم وإرسالها الى الطبيب أو الأجهزة التي تجري قياس ونقل لاسلكي للمعلومات، مثل قياس ضغط الدم أو السكر في الدم أو وظيفة الرئة إضافة الى أجهزة المراقبة المنزلية للأشخاص من كبار السن أو المصابين بالخرف والتي تكشف التغيرات في الأنشطة العادية مثل الوقوع.

ومن أكثر المجالات الطبية استفادة من تطور التكنولوجيا الرقمية، مجال التصوير الطبي الذي أصبح بفضلها تصويرا عالي الجودة وبأبعاد ثلاثية أو رباعية، ويعطي نتائج غاية في الدقة ويمكن الطبيب من تجزئة الصورة مثلا ووضعها بمفردها على الشاشة والتدقيق

في تفاصيلها من خلال تكبيرها أو تصغيرها بالقدر الذي يريد، مما يجعله يدرك بدقة العلة أو الخل ويمكنه من حسن وصف الدواء أو اتخاذ قرار آخر مناسب للحالة.

كما تمكن التقنيات الرقمية من إجراء عمليات معقدة على الجنين داخل رحم الأم وكشف العديد من أنواع الأمراض الخبيثة لدى آخرين أو أمراض القلب واضطرابات الدماغ وغيرها.

ومن الخدمات التي قدمها التطور الرقمي السجل الصحي الالكتروني الذي يمكن من الحصول على نتائج الفحوصات المخبرية ونتائج التصوير الشعاعي في ثوان ليصبح للطبيب المعلومات الكافية حول المريض لاتخاذ القرار المناسب في وقت قياسي.

ومن ايجابيات السجلات الصحية الرقمية أنها تقلل الأخطاء التي طالما وقعت فيها السجلات الورقية كما تسهل على الأطباء متابعة المرضى كل حسب اختصاصه وتساعدهم على التواصل مع بعضهم البعض في الوقت المناسب لأخذ القرار الذي يخدم صحة المريض (6).

ويبقى تعميم الانتفاع بهذه التقنيات لكل الناس في المجال الصحي هدفا، يدفعنا انتماؤنا الى العنصر البشري كما عقيدتنا التي تعتبر أن «أحب الناس الى الله أنفعهم للناس» (7) الى الاهتمام به، خاصة وأن وعدا الاهيا لا لبس فيه مفاده أن الرّب يذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض (8)، ولكن ليس كل ما يتمناه المرؤ يدركه، لذلك وجب عرض الاشكالات التي تحول دون ذلك والبحث عن حلول لها.

من الخدمات التي قدمها التطور الرقمي السجل الصحي الالكتروني الذي يمكن من الحصول على نتائج الفحوصات المخبرية ونتائج التصوير الشعاعي في ثوان ليصبح للطبيب المعلومات الكافية حول المريض لاتخاذ القرار الذي يخدم صحته في وقت قياسي، بالإضافة إلى أنها تقلل الأخطاء التي طالما وقعت فيها السجلات الورقية.



(6) <https://www.thearabhospital.com>

(7) ما رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (13646)، و«المعجم الأوسط» (6026)، و«المعجم الصغير» (861) عن عبد الرحمن بن قيس الضبي عن سكين بن سراج عن عمرو بن دينار، عن ابن عمر.

(8) تدبر الآية 17 من سورة الرعد / القرآن الكريم

ا. ا. تعميم الانتفاع بالتقنيات الرقمية:

اشكالات وحلول

أصبح شائعاً اليوم أنّ الإنسان يمكن له مراقبة وضعه الصحي باستعمال تقنيات رقمية عديدة مثل استخدام لاصق مراقبة «الجلوكوز» لتتبع مستويات السكر لديه واستخدام ساعة «فيتبيت» لإدراك أنماط نومه، واستخدام ساعة «ذكية» لمتابعة معدل نبضات قلبه، إلا أنّ تلك الإمكانيّة تبقى غير متاحة للجميع لنقص في الامكانيّات الماليّة، ممّا يجعل الاستفادة من تلك التقنيات محدودة ومقتصرة على من يملك موارد الإنفاق عليها.

ويبقى الأهم من استخدام الأدوات الرقمية التي تُلبّي احتياجات الإنسان الصحيّة هو تمكّن أكثر عدد ممكن من الانتفاع بها، في أفق انتفاع الجميع بها دون استثناء، ممّا يجعل عمليّات تمويل الخدمات الصحيّة خاصّة

الرقميّة منها، عنصراً أساسياً لتفعيل قدرة النظم الصحيّة على رفاه الإنسان وتحسين شروط حياته كما ذهب الى ذلك منظمة الصحة العالميّة⁽⁹⁾.

فالتّمويل الصحي والذي يشمل تجميع الموارد وحسن التّصرف فيها، إنّما وُضع ليتمكّن سكّان بلد ما من الاستفادة من الخدمات الصحيّة اللاّزمة دون التّعرض لخطر الصّعوبات الماليّة الشّديدة وذلك تحقيقاً لعدالة إسداء الخدمات العلاجيّة والاستشفائيّة لهم.

وإذا قارنا استخدام التقنيات الرقمية في المجال الصحي بين البلدان الميسورة والبلدان الأقل موارد ماليّة، لاحظنا تبايناً جلياً ممّا يعكس غياب المساواة في استخدامها ويعمّق الفجوات بين شعوبها على مستوى الانتفاع بها. وعلى مستوانا الوطني وأمام تحدّي ندرة الموارد الماليّة ولتجاوز عدم ملاءمة نظامنا التّمويلي لاحتياجات شعبنا الصحيّة ومتطلّبات المتغيّرات والتّحوّلات الديمغرافيّة والسّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والوبائيّة التي نعيش على وقعها لا بدّ من اتباع مسارات ثلاثة في آن واحد:

- مسار ينظر للصّحة كمسؤوليّة فرديّة وجماعيّة لكلّ صاحب قرار في مختلف الأنشطة الاقتصاديّة والحياتيّة عامّة.

- توفير شروط تحريك عجلة النّمو الاقتصادي، خلقاً للثروة، وبخلفيّة تنمويّة متعدّدة الأبعاد وما تتطلّبه من حوكمة التّصرف في تلك الثروة، بما يضمن تلبية الاحتياجات الصحيّة لكلّ تونسي وتونسيّة.

(9) <https://www.who.int>

(10) راجع مقال لنا بعنوان « تمويل الصّحة العمومية بتونس التّحدّيات والفرص » بالمجلة العلمية المتخصّصة التي تصدرها الجمعية التّونسيّة للتّصرف الاستشفائي «صدي التّصرف الاستشفائي» العدد التاسع والعشرون (سبتمبر 2021) ص 04

- البحث عن إثراء التمويل الصحي بموارد مالية من جنس آخر كالتمويل الاجتماعي (حملات التبرع، الزكاة، الأوقاف...) الذي يُعتبر فرصة ذهبية⁽¹⁰⁾ وإرساء كل ما من شأنه أن يجعله تمويلا ناجزا وفاعلا وناجعا، من وضع لأطر تشريعية وآليات تفعيل واقعية.

وإلى جانب إشكالية ندرة التمويل تعترض الانتفاع بالتقنيات الرقمية في المجال الصحي، إشكالية نوعية نظم سجلات المرضى، حيث تشترط تلبية استخدام الأدوات الرقمية لاحتياجات الإنسان الصحية أن تكون ذات قدرة عالية على تقديم تقييمات دقيقة لسجلات المرضى في الوقت المناسب، إذ أن كل نظام سجل للمرضى غير مدروس أو مجزأ لا يخدم سوى القليل من الأغراض

إلى جانب إشكالية ندرة التمويل تعترض الانتفاع بالتقنيات الرقمية في المجال الصحي، إشكالية نوعية نظم سجلات المرضى، حيث تشترط تلبية استخدام الأدوات الرقمية لاحتياجات الإنسان الصحية أن تكون ذات قدرة عالية على تقديم تقييمات دقيقة لسجلات المرضى في الوقت المناسب



حتى لو كان يشمل أكثر التقنيات تقدما، بل قد يتسبب ذلك في تعكير صحة المريض بدل معافاته. ومع تفاقم جائحة كورونا ازدادت الحاجة لاستخدام التقنيات الرقمية في المجال الصحي تقويضا للعدوى الى جانب التدابير الوقائية، وقد ابتكر العقل البشري تطبيقا «إحتراز» لحماية الصحة العامة لسكان بلد ما، تطبيقا تمكن من معرفة الشخص المريض بالفيروس وبالتالي توفر إمكانية منعه من الدخول إلى الأماكن العامة حتى لا يتفشى الفيروس.

وقد تمكنت الصين التي انتشر منها الفيروس من القضاء على آثار الفيروس في فضاءات واسعة من البلاد حين التزمت بشكل صارم بتتبع المخالطين من حملة الفيروس عبر استخدام تطبيق «إحتراز». ولا يخلو استخدام هذه التقنية الرقمية من إشكاليات أيضا كتلك المتعلقة بالحريات الشخصية وما يمكن أن تشكله من انتهاك لها كما ذهبت الى ذلك فئات عريضة من المجتمعات الغربية، حيث تعرض استخدام التطبيق الى إنتقادات كبيرة بسبب ميلها الى جمع المعلومات الخاصة والشخصية للمستخدمين⁽¹¹⁾ خاصة في غياب قاعدة من قواعد الحفاظ على سلامة الانسان «لا ضرر ولا ضرار»⁽¹²⁾.

(11) <https://www.aljazeera.net>

(12) «لا ضرر ولا ضرار» عن أبي سعيد سعد بن سنان الخديري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (لا ضرر ولا ضرار)، حديث حسن رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما مسندا، ورواه مالك في الموطأ مرسلا: عن عمرو بن يحيى عن أبيه عن النبي ﷺ.



د حسن الجفني
«خبير في علوم التربية وجامعي
في العلوم الاقتصادية»
jemniha@gmail.com



غلاء أسعار البضائع في المساحات التجارية الكبرى و«ظاهرة الربح الخفي» في تونس



تفيد «إحصائيات تونس»⁽¹⁾ المتعلقة بالاستهلاك العائلي أنّ وتيرة ارتفاع أسعار المواد الغذائية خلال شهر جويلية 2021 تطوّرت بنسبة 8,0%. ويعود هذا الارتفاع الى الزيادة المسجلة في أسعار الزيوت الغذائية بنسبة 16,6% وأسعار الخضّر بنسبة 15,5% وأسعار الحليب ومشتقاته والبيض بنسبة 9,2% وأسعار الأسماك بنسبة 8,4% وأسعار اللحوم بنسبة 7,3% مقارنة بمستواها خلال شهر جويلية 2020. وتعود ظاهرة غلاء أسعار البضائع التي استفحلت في تونس إلى ثلاثة أسباب:

السبب الأوّل: انحدار سعر صرف الدينار التونسي أمام العملة الأجنبية، وخاصة منها اليورو والدولار، وسعر الصرف هو السعر النسبي لعملة نقدية مقارنة بعملة أخرى، بمعنى عدد الوحدات من عملة نقدية أجنبية التي يمكن الحصول عليها مقابل وحدة من العملة الوطنية (الدينار). فقد شهد الدينار التونسي هبوطا بدرجة 43% خلال السنوات العشر الأخيرة، وهي ظاهرة قد تعود إلى عجز الميزان التجاري، وتراجع القطاع السياحي، والاستثمار الأجنبي المباشر، وتوقف الصادرات من مادة الفسفاط والطاقة، وهو ما أدى

<http://ins.tn/ar/publication/mwshr-asar-alasthlak-alayly-jwylyt-2021> (1)

إلى تراجع الاحتياطي من العملة الصعبة، وكان لانحدار قيمة الدينار تأثير مباشر في أسعار المواد الأساسية.

السبب الثاني: وجود المضاربين الذين يتحكمون في حلقات الإنتاج والتوزيع والخزن عن طريق استغلال مخازن التبريد (الفريقات)، وعن طريق ما يعرف بـ «التخضير»، وعن طريق الوسطاء (الهباطة) الذين نراهم في أسواق البيع بالجملة.

السبب الثالث: المساحات التجارية الكبرى التي لا تحترم مبادئ النظام التجاري العام من خلال إصرارها على التمسك بهامش الربح الأمامي وهامش الربح الخلفي. وهو السبب الذي سنتوقف

تعود ظاهرة غلاء أسعار البضائع التي استفحلت في تونس إلى ثلاثة أسباب، الأول: انحدار سعر صرف الدينار التونسي أمام العملة الأجنبية، والثاني: وجود المضاربين الذين يتحكمون في حلقات الإنتاج والتوزيع والخزن و الثالث: المساحات التجارية الكبرى التي لا تحترم مبادئ النظام التجاري العام من خلال إصرارها على التمسك بهامش الربح الأمامي وهامش الربح الخلفي.

عنده في هذه المقالة:

رغم أنّ المساحات التجارية الكبرى تُعدّ قطاعا مساهما رئيسيًا في الاقتصاد التونسي بصفته موزعا لكافة المنتجين الموجودين في تونس ويمثّل أقصر مسلك توزيع لإيصال المنتج من المنتج إلى المستهلك، إلا أنّ أسعار البضائع في المساحات التجارية الكبرى خيالية، فأصحاب تلك المساحات يسعون إلى الإثراء الفاحش على حساب المستهلك، وتتمثل التجاوزات التي تنتهجها هذه الفضاءات في اعتمادها هامش ربح أمامي وهامش ربح خلفي. فـ «الربح الخلفي» جعل المساحات التجارية الكبرى محرّكا أساسيا لارتفاع نسق أسعار البضائع لأنّه قد يتجاوز 31 % من السعر المناسب للمنتج (المصنع)، ذلك أنّ الفضاءات الكبرى تعتمد في الفاتورة هامش ربح أمامي بـ 30 % وهامش ربح خلفي بنسبة تتجاوز أحيانا 31 % تضاف إلى الأداء على القيمة المضافة الذي يصل إلى 9 % وبالتالي يبلغ هامش الربح لديها إلى 70 % وأحيانا أكثر من ذلك يتحمّله المستهلك.

وهامش الربح الخلفي يكون قبل حصول المساحات التجارية الكبرى على المنتج فالمنتج متضرّر مثل المستهلك في علاقة بهذا الهامش، ذلك أنّ سعر المنتج (البضاعة) يقع تحديده والتفاوض حوله مرّة واحدة في السنة في حين أنّ الزيادات في الأسعار يمكن أن تصل حتّى إلى أربع مرّات في السنة. فهامش الربح الخلفي هو الإشكال الكبير الذي يثقل كاهل المؤسسة المنتجة والمصنعة من جهة وكذلك كاهل المواطن من جهة ثانية.

ولمزيد توضيح ذلك نقدّم المثال التالي:

إذا كان سعر شراء التّجار لبضاعة من عند المنتج (المصنع) وقع تحديده بـ 0,850 د، فإنّ المساحة التّجارية الكبرى تشتريه بـ 0,595 د، وتبيعه بنفس سعر التّاجر العادي 1,250 د، فتربح مرّتين (ربح خلفي وربح بعدي)، ومثل هذا الإجراء يضطرّ المنتج (المصنع) إلى محاولة التّرفيع في السّعر الأصلي للمنتوج كي يضمن تكلفة عمله (2)

فلا بدّ من تقنين هيكله الأسعار عند الإنتاج، فتكون واضحة، ومن الضّروري أن يتمّ تحديد سقف لهامش الرّبح لدى بائع الجملة يتقيّد به ولا يتجاوزه في كلّ المواد والمنتجات الاستهلاكيّة، والكفّ عن توريد كل منتج له مثل في تونس،

وإلا فإنّنا سندخل إلى مرحلة الاقتصاد الرّيعي في حرّية الأسعار. ونجد أنّ مجلس المنافسة الفرنسي، مثلاً، أجبر الفضائات التّجاريّة الكبرى على دفع خطيّة ماليّة بسبب هامش الرّبح الخلفي قصد مقاومة النّسق التّصاعدي للأسعار عند الاستهلاك في فرنسا والتّغول الرّهيب للمضاربين الذين يسعون بشتّى وسائلهم المخالفة للقوانين إلى تحقيق الأرباح الكثيرة والإثراء السّريع على حساب طبقات الشّعب الفقيرة التي هي في أمسّ الحاجة لحلول سريعة ونافذة من أجل دعم مقدرتها الشّرائيّة.

وقد يكمن الحلّ الأمثل في الاقتصاد الاجتماعي التّضامني أي بيع المنتج مباشرة من المنتج إلى المستهلك دون الوسائط، وهو حلّ تقترحه المنظّمة التّونسيّة لإرشاد المستهلك (3) ونراه مناسباً جدّاً. ونؤيّد المنظّمة في تشديدها على ضرورة التّمسك بحملة مقاطعة المساحات التّجارية الكبرى في الوقت الحالي إلى حين احترام مبادئ النّظام التّجاري العام ومن بينها التّخلي عن الرّبح الخلفي للحدّ من النّسق التّصاعدي للأسعار وتكريس شفافيّة التّعامل والإشهار وجودة المواد المعروضة ونظام تصريف المواد المدعّمة المخزّنة.

(2) نصّ المثال نقدّمه على سبيل التّشرح قصد مساعدة القارئ على الفهم فقط، لكن في الحقيقة فإنّ الرّبح الخلفي ينطبق على مواد غذائيّة عديدة أخرى.

(3) ولعلّه من المفيد تعريف المواطنين برقم نداء المنظّمة التّونسيّة لإرشاد المستهلك 81104444 التي تبدي استعدادها لتلقّي شكاياتهم ذات العلاقة بارتفاع الأسعار في كل المجالات



الأمركية الإدارية الجغرافية الموسعة لسورية المستقبل (1-2)



لأسباب تاريخية وسياسية وجغرافية عديدة، أصبحت سورية موطناً لعدد كبير من الأطياف المتعايشة جنباً إلى جنب، مما أثر بشكل كبير في فرص تحسين علاقاتها ببعضها، والوصول إلى مرحلة الشعب بمفهومه السياسي الحديث. ولكن بقيت هذه الأطياف - عملياً - وبغض النظر عن الصورة الكاذبة التي كان يقدمها نظام آل الأسد، في حالة من التفكك والانغلاق على الهوية ما قبل الوطنية، فبقي الشعور الوطني السوري الجامع ضعيفاً.

أولاً: عوائق تقسيم سورية

وسط تقاسم النفوذ بين القوى الإقليمية والدولية، يجري الحديث عن تقسيم سورية إلى دويلات، غير أن هذا الحديث تعترضه عوائق عديدة، منها: أنه في ظل توازنات سياسية - عسكرية غير مستقرة، وفي ظل احتمالات تغيير مواقف القوى الخارجية في الموضوع السوري، وفي ظل عدم وجود قرارات دولية حول مستقبل سورية. وإرادة الشعب السوري، الذي اتخذ على عاتقه مهمة إبقاء سورية موحدة بعد رحيل نظام آل الأسد. خاصة في ظل عوامل أبرزها التداخلات السكانية، من حيث توزع الانتماءات القومية والدينية والطائفية على غالبية المحافظات السورية، وكذلك الروابط والمشاركات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المتداخلة للسوريين.

ولكن، في ظلّ صراع الهُويّات القائم اليوم، وكذلك المقتلة التي عصفت بسوريّة، أصبح السّوريون في حاجة ملحة إلى عقد اجتماعي جديد، ينقلهم إلى الحالة الوطنيّة الجامعة.

إنّ تقسيم الأمر الواقع الحاصل اليوم، لا يمكن أن يتحوّل إلى تقسيم سياسي يؤسّس لكيانات جديدة. ولكن قد يكون خيار اللامركزية الإدارية الجغرافية الموسعة متاحا، في حال حصل التوافق بين السّوريين، خلافاً لخيار التقسيم الذي تقف دونه كثير من العوامل السياسيّة والميدانيّة والجغرافيّة والاقتصاديّة.

إنّ تقسيم الأمر الواقع الحاصل اليوم، لا يمكن أن يتحوّل إلى تقسيم سياسي يؤسّس لكيانات جديدة. ولكن قد يكون خيار اللامركزية الإدارية الجغرافية الموسعة متاحا، في حال حصل التوافق بين السّوريين، خلافاً لخيار التقسيم الذي تقف دونه كثير من العوامل السياسيّة والميدانيّة والجغرافيّة والاقتصاديّة

ثانياً: تحديات فيدرالية PYD

لعلّ أول متحقّق لمحاولات تقسيم سوريّة، حدث في الشّمال السّوري، مع تشكيل كانتونات الإدارة الدّاتية، التي فرضها حزب الاتحاد الديمقراطي (PYD)، حين أرسى دعائم ما يشبه دويلة، تحت مسمى «غرب كردستان»، وشكّل قوّة عسكريّة، دعاها «قوّة حماية الشعب»، وشكّل أيضاً شرطة معروفة باسم «أسايش»، لعبت دوراً كبيراً في ملاحقة وقمع النّاشطين الأكراد المختلفين مع ما يطرحه الحزب وتوجّهاته، وممارساته.

ولعلّ طرح حزب الاتحاد الديمقراطي لموضوع الفيدراليّة، وقبلها الإدارة الدّاتية، جعله موضع تساؤل، امتد إلى تناول علاقته بعامة الأكراد، وبالأحزاب الكرديّة، ولم يقف عند التباس الخطوات الانفراديّة التي قام بها منذ قيام الثّورة السّورية، حيث أثّرت شكوك عن وجود علاقة بينه وبين سلطة آل الأسد، منذ سحب النّظام قواته وأجهزته من المناطق ذات الغالبية الكرديّة، وتركها في عهدة مسلّحي هذا الحزب.

حقيقة الأمر، أنّ التّحديات التي تواجه قيام دولة كرديّة في شمال سوريّة، لا تقف عند عتبة الظّروف الإقليميّة والدّولية فقط، فثمّة عوامل تخصّ الحالة الكرديّة هناك، من المساحة الجغرافيّة الضيّقة وامتدادها على طول الشّريط الحدودي مع تركيا، على شكل ثلاث مناطق منفصلة، تخترقها مناطق ذات أغلبية عربيّة.

وعليه، يمكن وضع تصريحات بعض السّياسيين الكرد، حول مشروع الدّولة المستقلّة والتّهديد بالسّعي إلى الاستقلال وتقرير المصير، ضمن خانة الاستثمار في عواطف القاعدة الشّعبية الكرديّة، واستخدام هذه المطالب كأداة تفاوضيّة للحفاظ على شرعيّة محلّية.

ثم أنّ المشروع الفيدرالي في شمال سورية ربّما سيولد نزاعاً جديداً بين مكوّناته لا يستطيع أحد التنبؤ بنتائجه، خاصّة أنّ للمشروع حدوداً جغرافية قد تتسبّب في نزاعات شبيهة بالنزاعات التي واجهها إقليم كردستان العراق مع حكومة المركز.

سورية، بخلاف العراق، لا تسمح طبيعتها الجغرافية، وتداخل مكوّناتها، بالقسمة وفق هذا التّصوّر الذي يُراد الاسترشاد به، أو استنساخه، إذ لا يستطيع أيّ مكوّن الانفصال عن غيره، خاصّة أنّ المكوّنات العرقية والدينيّة والمذهبيّة في سورية،

ليس لها جغرافيا محدّدة، وليس لها أغلبيّة بشريّة إلاّ في أماكن محدودة، غير مؤهّلة لأن تكون أقاليم فيدراليّة قائمة بذاتها.

فوق كلّ ذلك فإنّ الحديث عن فيديريّة وديموقراطيّة لا يستقيم مع وجود حزب مهيم يفرض سطوته الأحاديّة بالقوّة المسلّحة، لأنّ هذا سيكون نموذجاً لحزب بعث آخر. أمّا في حال أخرى، أي في حال حسم الأكراد الأمر باعتبارهم غير سوريين، أي أكراد يريدون انتزاع دولتهم القوميّة، ومن ضمن ذلك ما يعتبرونه أرضهم الخاصّة من سورية، في هذه الظروف الصّعبة والدّقيقة، فهذا شأن آخر، ويخشى أن هذا سيضعهم في مشكلة أخرى، وإزاء حروب أهليّة أخرى، ووقوداً لمآرب دوليّة وإقليميّة، بغض النّظر عن رأينا بمظلوميّة الأكراد التّاريخيّة، وعدالة أو مشروعيّة حقّهم في دولة قوميّة، في أراضيهم المتوزّعة بين إيران وتركيا والعراق وسوريّة.

إنّ توزّع الأكراد الدّيموغرافي على قسم كبير من الجغرافيا السّوريّة، خاصّة في مدينتي دمشق وحلب، واختلاطهم الكثيف في مناطق الجزيرة السّورية وشرق نهر الفرات بالعرب وغيرهم من القوميّات الأخرى، يجعل الخيار الوطني السّوري خياراً مفروضاً موضوعياً بقوّة الجغرافيا والدّيموغرافيا.

ثالثاً: نحو عقد وطني جديد

إنّ الأمر يتطلّب بلورة عقد وطني جديد، وهذا يستدعي أن يتناول الحلّ السّياسي القادم المسائل الأساسيّة كافّة، التي تهّم جميع المكوّنات السّوريّة، من خلال انخراط الجميع في عمليّة صياغة هذا العقد، مع توفير الضّمانات لإنجاحه وتثبيت نتائجه وحماية هذه النّتائج.

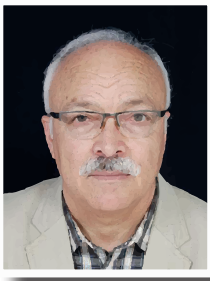
مما يستوجب الانخراط في إنتاج نظرة سورية راهنة إلى سائر القضايا السوريّة، وما يعنيه هذا من ضرورة الانتقال من الصّراع القومي إلى الحوار الوطني، الهادف إلى بناء الدولة الوطنيّة الحديثة، دولة كلّ مواطنيها المتساوين في الحقوق والواجبات.

وفي هذا السّياق فإنّ وحدة القوى الديمقراطيّة العربيّة والكردية ضروريّة، لنيل حقوقهم كاملة في مرحلة ما بعد الاستبداد، بدعم من جميع الأطياف الديمقراطيّة التي ستشارك في بناء النّظام الجديد، سيجعل من الاستحالة تجاوز حقوق كلّ الأطياف.

يخطئ من يعتقد بأنّ الرّفص والإدانة للفيديريّة والعودة للتّهديد بأساليب القهر والقسر يمكنها حماية وحدة البلاد، فالطّريق المجربة للحفاظ على اللّحمة الوطنيّة هي حين تنظّم حياة السّوريين قوانين لا تميّز بينهم ويتلمّسون بأنهم بشر متساوون في الحقوق والواجبات

لهذا تبدو الحاجة ملحّة الآن، أكثر من أي وقت مضى، إلى تنظيم وإطلاق حوار وطني واسع، يقوم به سوريّون أحرار، يمتدّ ليشمل البلد بأكمله، ويفضي إلى عقد اجتماعي جديد. وإنّه لأمر بديهي أنّ استعادة الدولة أولاً، وإرساء الدولة الوطنيّة الحديثة، والمجتمع الديمقراطي التّعدي ثانياً، يشكّلان حجر الزّاوية في العقد الاجتماعي المأمول.

وهكذا، يخطئ من يعتقد بأنّ الرّفص والإدانة للفيديريّة والعودة للتّهديد بأساليب القهر والقسر يمكنها حماية وحدة البلاد، فالطّريق المجربة للحفاظ على اللّحمة الوطنيّة هي حين تنظّم حياة السّوريين قوانين لا تميّز بينهم ويتلمّسون بأنهم بشر متساوون في الحقوق والواجبات، طريق لا يمكن أن تنهض إلاّ بنقد الماضي المكتظّ بكلّ أنواع الظّلم والاضطهاد، والاعتراف بأنّ النّظام المركزي بنسخته الشّموليّة ذهب إلى غير رجعة. ما يعني ضرورة إعادة النّظر بأفكارنا القديمة، وبشعاراتنا عن التّعاش والتّعدديّة، استناداً إلى أنّ وحدة الوطن ومعالجة تنوّعه القومي والديني، لا يمكنهما أن تتحقّقا بصيغة عادلة إلاّ على قاعدة الديمقراطيّة ودولة المواطنة.



كيف نُصِبَت الجبال؟ الجزء الأول



نتدبر في هذا المقال الآية 19 من سورة الغاشية ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ وهي تنتمي الى مجموعة كبيرة من الآيات التي وردت في القرآن الكريم تدعو للنظر سواء في الظواهر الطبيعية أو في الأحداث التاريخية أو في النفس البشرية أوفي الآفاق⁽¹⁾. جاءت هذه الدعوة في سياق استفهام يحتمل التّعجب والتّوبيخ والإنكار لعدم النّظر في الكيفية التي نصبت بها الجبال وكيفيات أخرى تتعلّق برفع السّماء وخلق الإبل وتسطيح الأرض⁽²⁾. وهي بصيغتها تلك تخبر في الآن نفسه وبوضوح بأنّ الجبال نُصِبَتْ ولم تكن موجودة وبكيفية يمكن التّعرف عليها. فما هو هذا النّظر القادر على كشف الطّريقة التي نُصِبَتْ بها الجبال؟ وهل نُصِبَتْ الجبال فعلا؟ وبأيّ كيفة؟ هذا ما سنتناوله بالبحث على ضوء ما تسمح به اللّغة وما توصل اليه العلم الحديث لنرى هل كان للاستفهام معنى وهي التي صيغت قبل أكثر من 1300 سنة من نشأة العلم الحديث وتطوّره.

(1) راجع الآيات التي ورد فيها لفظ «نظر» ومشتقاته في القرآن الكريم.

(2) ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ

(20) -سورة الغاشية.

النَّظْرُ لَفَةً:

الكلمة: نَظَرَ يَنْظُرُ. الجذر: نظر. الوزن: فَعَلَ / يَفْعُلُ. (ش ع) (3)

ينقل الأزهري عن الليث قوله: «فلان نظيرك أي مثلك لأنه إذا نَظَرَ إليهما الناظرُ رأهما سواءً». يتضمّن النَّظْرُ بناءً عليه المعاينة والتأمّل كما جاء في مقاييس اللغة (4) لأنّ الحكم على شيئين بأنّهما سواء يتطلّب رؤيتهما بالعين باعتبار أنّ «(عَايَنَ) الشَّيْءَ (عِيَانًا) رَأَهُ بِعَيْنِهِ» (5) وكذلك «التَّفْكِيرِ الْعَمِيقِ فِي حَقَائِقِهِمَا» (6).

وفي الفروق اللغوية للعسكري (7) عن عليّ بن عيسى أنّه قال: «النَّظْرُ طلبُ ظُهُورِ الشَّيْءِ... وَيَكُونُ النَّظْرُ الطَّالِبَ لظُهُورِ الشَّيْءِ بِإِدْرَاكِهِ مِنْ جِهَةٍ حَاسَةِ بَصَرِهِ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ حَوَاسِهِ» وقال أيضا: «وَالنَّظْرُ أَيْضًا هُوَ الْفِكْرُ وَالتَّأَمُّلُ لِأَحْوَالِ الْأَشْيَاءِ... وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَصْلِحُ النَّظْرُ فِي الشَّيْءِ لِيَعْلَمَ إِلَّا وَهُوَ مَجْهُولٌ». وفيه أيضا أنّ «حَدَّ النَّظْرِ طَلَبُ إِدْرَاكِ الشَّيْءِ مِنْ جِهَةِ الْبَصَرِ أَوْ الْفِكْرِ وَيَحْتَاجُ فِي إِدْرَاكِ الْمَعْنَى إِلَى الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا» وأنّ «أصل النَّظْرِ الْمُقَابَلَةُ فَالنَّظْرُ بِالْبَصَرِ الْإِقْبَالَ نَحْوَ وَالنَّظْرُ بِالْقَلْبِ الْإِقْبَالَ بِالْفِكْرِ نَحْوَ الْمَفْكَرِ فِيهِ».

ولمزيد التّدقيق في المعنى الذي يحيل إليه الجذر (نظر) نستعين بالتّفريق الذي ذكره العسكري في الفروق اللغوية بين النَّظْرِ وَالتَّأَمُّلِ إذ قال: «الْفَرْقُ بَيْنَ النَّظْرِ وَالتَّأَمُّلِ أَنَّ النَّظْرَ هُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ (طلبُ ظُهُورِ الشَّيْءِ) وَالتَّأَمُّلُ هُوَ النَّظْرُ الْمُؤَمَّلُ بِهِ مَعْرِفَةً مَا يَطْلُبُ وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِي طَوْلِ مُدَّةٍ، فَكُلُّ تَأَمُّلٍ نَظْرٌ وَلَيْسَ كُلُّ نَظْرٍ تَأَمُّلًا».

وفي التّوقيف على مهمّات التعاريف (8) أنّ النَّظْرَ عند أهل الأصول هو «الفكر المؤدّي إلى علم أو ظنٍّ وأكثر استعمال للخاصّة يكون بمعنى البصيرة أي قوّة الإدراك والعلم والخبرة والفتنة».

(3) (نَظَرَ يَنْظُرُ) شمس العلوم-نشوان بن سعيد الحميري-توفي: 573هـ/1177م (ش ع)

(4) مقاييس اللغة (نظر) مقاييس اللغة-أحمد بن فارس-توفي: 395هـ/1005م. (م ل)

(5) مختار الصحاح-محمد بن أبي بكر الرازي-توفي: 666هـ/1268م (م ص)

(6) الغني-عبد الغني أبو العزم-صدر: 1421هـ/2001م (غ)

(7) (الفرق بين النظر والرؤية) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري-توفي: نحو: 395هـ/1005م

(ف ل)

(8) (النظر عند أهل الأصول) التوقيف على مهمّات التعاريف-زين الدين محمد المدعو بعبدرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين

العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري-توفي: 1031هـ/1622م (ت م ت)

أما في المعجم الاشتقاقي المؤصل⁽⁹⁾ فتوصل الكاتب الى أن استعمالات التركيب الواردة في القرآن الكريم دائرة بين أمور منها «التأمل العقلي الذي يؤخذ اشتقاقياً من المواجهة بالنظر لالتقاط الشيء» مستشهدا بما جاء في بصائر ذوي التمييز أن: «النظر أيضاً تقليب البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به الأمل والفحص».

كَيْفَ لَفَة

الكلمة: كيف. الجذر: كيف. الوزن: فَعْل. (ش ع) نجد في كتاب العين⁽¹⁰⁾ في باب كيف أن: «كَيْفَ: حرف أداة، ونصبوا الفاء، فراراً من الياء الساكنة لئلا يلتقي ساكنان». بمعنى أنه: «كان يجب أن تكون ساكنة لأن فيها معنى الاستفهام فأشبهت

الحروف، ولكنها حركت لالتقاء الساكنين واختير لها الفتح لخفته». كما نقل الحميري عن البعض في شمس العلوم. وعن الاستفهام نقراً في الصحاح⁽¹¹⁾ أن « كيف: اسم مبهم غير متمكن وهو للإستفهام عن الأحوال وقد يقع بمعنى التعجب كقوله تعالى: «كيف تكفرون بالله» وهو ما يورده ابن فارس في مقاييس اللغة اذ يقول: «فَأَمَّا كَيْفَ فَكَلِمَةٌ مَوْضُوعَةٌ يُسْتَفْهَمُ بِهَا عَنْ حَالِ الْإِنْسَانِ فَيُقَالُ: كَيْفَ هُوَ؟ فَيُقَالُ: صَالِحٌ». ولا يقتصر الاستفهام عن الحال بل يتعداه الى الصفة كما يقع بمعان أخرى غير التعجب وهو ما كتبه الفيومي⁽¹²⁾ أي أن: «كَيْفَ كَلِمَةٌ يُسْتَفْهَمُ بِهَا عَنْ حَالِ الشَّيْءِ وَصِفَتِهِ يُقَالُ كَيْفَ زَيْدٌ وَيُرَادُ السُّؤَالُ عَنْ صِحَّتِهِ وَسُقْمِهِ وَعُسْرِهِ وَيُسْرِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَتَأْتِي لِلتَّعْجِبِ وَالتَّوْبِيخِ وَالْإِنْكَارِ وَالْحَالِ لَيْسَ مَعَهُ سُؤَالٌ وَقَدْ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى النَّفْيِ وَكَيْفِيَّةِ الشَّيْءِ حَالُهُ وَصِفَتُهُ». فالاستفهام يمكن أن يكون حقيقياً أو غيره كما يشير الى ذلك الزبيدي⁽¹³⁾ بقوله: «والغالب فيه أن يكون استفهاماً عن الأحوال إما حقيقياً، ككيف زيد؟ أو غيره مثل: كيف تكفرون بالله فإنه أخرج مخرج التعجب والتوبيخ، وقال الزجاج: كيف هنا: استفهام في معنى التعجب». أما عن معاني

النظر عند أهل الأصول هو «الفكر المؤدي إلى علم أو ظن وأكثر استعمال للخاصة يكون بمعنى البصيرة أي قوة الإدراك والعلم والخبرة والفتنة» واستعمالات هذا التركيب الواردة في القرآن الكريم دائرة بين أمور منها «التأمل العقلي الذي يؤخذ اشتقاقياً من المواجهة بالنظر لالتقاط الشيء» استشهدا بما جاء في بصائر ذوي التمييز أن: «النظر أيضاً تقليب البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به الأمل والفحص».

(9) (نظر) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم-محمد حسن حسن جبل-صدر: 1432هـ/2010م (م ا م)

(10) (كيف) العين-الخليل بن أحمد الفراهيدي-توفي: 170هـ/940م (ع)

(11) (كيف) منتخب الصحاح-أبو نصر الجوهري-توفي: 393هـ/1003م (م ص)

(12) (كيف) المصباح المنير-أبو العباس الفيومي-توفي: 770هـ/1369م (م م)

(13) (كيف) تاج العروس-مرتضى الزبيدي-توفي: 1205هـ/1791م (ت ع)

(كيف) في القرآن في كل مواضعها فقد لخص أمرها صاحب المعجم الاشتقاقي فيما يلي: أ- البيان لهيأة / حال / صور؛ سؤالاً أو بغير سؤال، ب- سؤال عن هيأة / حال / صورة وفيه تعجب أو إنكار. وهو سائر ما في القرآن الكريم منها.

فكيف كلمة (حرف أداة / اسم مبهم) مَوْضُوعَةٌ يُسْتَفْهَمُ بِهَا عَنْ حَالِ الشَّيْءِ وَصِفَتِهِ وَالغَالِبُ فِي الاستفهام أَنْ يَكُونَ عَنِ الْأَحْوَالِ إِمَّا حَقِيقِيًّا أَوْ غَيْرُهُ كَأَنْ يَخْرُجَ مُخْرَجَ التَّعْجَبِ وَالتَّوْبِيخِ وَالانْكَارِ. وبإيجاز نقول ما قيل في التوقيف على مهمات

التعريف أن كيف هي «كلمة مدلولها استفهام عن عموم الأحوال التي من شأنها أن تدرك بالحواس».

نصب لفة

«الكلمة: نَصَبَ يَنْصِبُ. الجذر: نصب. الوزن: فَعَلَ/يَفْعِلُ». (ش ع). ونَصَبَ هو «فعل: ثلاثي. لازم ومتعدّد. مزيد بحرف».

«(نَصَبَ) الشَّيْءَ أَقَامَهُ وَبَابُهُ ضَرَبَ» (م ص). و«النَّصَبُ: مصدر نَصَبْتُ الشَّيْءَ، إذا أَقَمْتَهُ» (م ص) و«رَفَعُكَ شَيْئًا تَنْصِبُهُ قَائِمًا مُنْتَصِبًا» (ع). «وفي مقاييس اللغة: «(نَصَبَ) النُّونُ وَالصَّادُ وَالْبَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِقَامَةِ شَيْءٍ وَإِهْدَافٍ فِي اسْتِوَاءٍ. يُقَالُ: نَصَبْتُ الرُّمْحَ وَغَيْرَهُ أَنْصَبْتُهُ نَصْبًا. وَتَيْسُ أَنْصَبُ، وَعَنْزُ نَصْبَاءً، إِذَا انْتَصَبَ قَرْنَاهَا وَنَاقَةٌ نَصْبَاءً: مُرْتَفَعَةٌ الصِّدْرِ. وَالنَّصَبُ: حَجْرٌ كَانَ يُنْصَبُ فَيُعْبَدُ». «ومن المجاز: غبار مُنْتَصِبٌ»⁽¹⁴⁾ أي مُرْتَفِعٌ. يُقَالُ: نَصَبْتُ الشَّيْءَ؛ إِذَا رَفَعْتَهُ، فَاَنْتَصَبَ»⁽¹⁵⁾ لذلك فَإِنَّ النَّصْبَ هُوَ: «الشَّيْءُ النَّاتِي، الظَّاهِرُ، الْقَائِمُ كَالرُّمْحِ أَوْ الْبِنَاءِ»⁽¹⁶⁾. وفي المعجم الاشتقاقي نجد أَنَّ المعنى المحوري يدلُّ على: «إقامة الشَّيْءِ إِلَى أَعْلَى قَوِيًّا مَتَمَاسِكًا أَوْ شَدِيدًا عَلَى وَضْعِ مُسْتَقِيمٍ دَائِمٍ» (م ا).

نخلص من هذا أَنَّ مادة «نصب» فيها معاني الرّفْع والإقامة لجسم شديد التماسك وما يستتبع ذلك من نتوء وظهور وتطاول، وَأَنَّ استعمال النَّصْبِ لِلْجِبَالِ يَعْنِي أَنَّهَا كَتَلٌ هَائِلَةٌ

في مادة «نصب» معاني الرّفْع والإقامة لجسم شديد التماسك وما يستتبع ذلك من نتوء وظهور وتطاول، وَأَنَّ استعمال النَّصْبِ لِلْجِبَالِ يَعْنِي أَنَّهَا كَتَلٌ هَائِلَةٌ مَتَمَاسِكَةٌ أَقِيمَتْ وَرَفَعَتْ لِلأَعْلَى عَلَى وَضْعِ مُسْتَقِيمٍ دَائِمٍ بِاعْتِبَارِ أَنَّ «أَقَامَ الشَّيْءَ أَيَّ أَدَامَهُ»

(14) أساس البلاغة (نصب) أساس البلاغة-أبو القاسم الزمخشري-توفي: 538هـ/1143م (أ ب)

(15) المجموع المغيث في غريب القرآن والحديث (نصب) محمد بن عمر بن أحمد بن عمر بن محمد الأصبهاني المدني، أبو موسى-توفي:

581هـ/1185م (م غ ق ح)

(16) المعجم المفصل في الإعراب (نصب) طاهر يوسف الخطيب-صدر: 1412هـ/1991م (م م ا)



إِنَّ النَّظْرَ الْمَطْلُوبَ فِي الْآيَةِ 19
مِنَ الْغَاشِيَةِ هُوَ دَعْوَةٌ لِلإِقْبَالِ نَحْوَ
الْجِبَالِ بِالْبَصْرِ وَالْبَصِيرَةِ وَالتَّفْكِيرِ
الْعَمِيقِ فِي الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي نُصِبَتْ
بِهَا طَلِبًا لِإِدْرَاكِ شَيْءٍ مِنْ حَقِيقَتِهَا
وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ الْاسْتِفْهَامِ عَنْ
أَحْوَالِهَا وَصِفَاتِهَا الْمَتَعَلِّقَةِ بِرَفْعِهَا
إِلَى أَعْلَى مَتَمَاسِكَةٍ عَلَى وَضْعِ
دَائِمٍ.



متماسكة أقيمت ورفعت للأعلى على وضع مستقيم
دائم باعتبار أنّ «أَقَامَ الشَّيْءُ أَيُّ أَدَامَهُ» (م ص).
والدوام نسبي وهو هنا يقاس بعمر الإنسانيّة إذ
الإنسان هو الذي وضع لفظ الدوام ليعبر على بقاء
الشيء زمنا طويلا.

استنتاج

وتأسيسا عليه يكون النَّظْرُ الْمَطْلُوبُ فِي الْآيَةِ 19
مِنَ الْغَاشِيَةِ هُوَ دَعْوَةٌ لِلإِقْبَالِ نَحْوَ الْجِبَالِ بِالْبَصْرِ
وَالْبَصِيرَةِ وَالتَّفْكِيرِ الْعَمِيقِ فِي الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي نُصِبَتْ
بِهَا طَلِبًا لِإِدْرَاكِ شَيْءٍ مِنْ حَقِيقَتِهَا وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ

الاستفهام عن أحوالها وصفاتها المتعلقة برفعها الى أعلى متماسكة على وضع دائم. وبما أنّ
النَّظْرَ فِي الشَّيْءِ لَا يَصِلِحُ لِيَعْلَمَ إِلَّا وَهُوَ مَجْهُولٌ كَمَا يَتَطَلَّبُ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ
الْكَيفِيَّةَ الَّتِي نُصِبَتْ بِهَا الْجِبَالُ كَانَتْ مَجْهُولَةً زَمَنَ الْوَحْيِ وَأَنَّ الْقُرْآنَ حَثَّ الْعَقْلَ عَلَى دِرَاسَةِ
الظَّاهِرَةِ وَالْبَحْثِ فِيهَا حَتَّى تَظْهَرَ حَقِيقَتُهَا وَيَعْلَمَ مَا كَانَ مَجْهُولًا عَنْهَا. كَمَا يَدُلُّ طَلِبُ
النَّظْرِ عَلَى أَنَّ الْكَيفِيَّةَ الَّتِي نُصِبَتْ بِهَا الْجِبَالُ قَابِلَةٌ لِإِدْرَاكِ الْحَسِّيِّ حَسَبِ الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْأَنَّ
لَمَّا كَانَ لِتِلْكَ الدَّعْوَةِ مَعْنَى وَأَنَّ الْجِبَالَ لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً وَوُجِدَتْ. وَبِمَا أَنَّ الْحَوَاسِ مَحْدُودَةٌ
وَلَكِنْ لَهَا امْتِدَادَاتٌ تَتَمَثَّلُ فِي وَسَائِلِ الْقَيْسِ وَأَدْوَاتِ الْحِسَابِ فَقَدْ لَقِيَ ذَلِكَ الْحَثُّ عَلَى النَّظْرِ
طَرِيقَهُ نَحْوَ الْإِنْجَازِ وَأَدَّى إِلَى تَجْلِيَةِ حَقِيقَةِ ظَاهِرَةِ انْتِصَابِ الْجِبَالِ.

لقد بيّنت الأبحاث المتعلقة بتاريخ علوم الأرض أنّ جهل الإنسان بطبيعة الجبال وبالكيفية
التي رفعت وبنيتها ووظيفتها ظلّ يصاحبه الى أن تراكمت المعارف العلميّة وأتقنت وسائل
القيس وتطوّرت أدوات المعالجة الحسابيّة للبيانات. وبدأ الاشتغال على الجبال منذ القرن
الثامن عشر بمنهجية علمية مستجيبة بذلك، كرها، لما تحثّ عليه الآية. لقد أصبح العقل
العلمي المبني على المشاهدات الدّقيقة ومراكمتها والتّجربة والمحاكات العدديّة بحواسيب
جبارة مسلّحة بنظريّة علمية تسمى «تكتونية الصّفائح» وهي إطار علمي فعّال وجامع
لعلوم الأرض ككوب ديناميكي متغيّر. وتعنى هذه النّظريّة بوصف وتفسير التّحوّلات التي
يخضع لها هذا الكوكب وخاصة تحركات غلافه الصّخري الخارجي. فكيف نصبت الجبال
حسب هذه النّظريّة؟. هذا ما سنتعرّض له في العدد القادم إن شاء الله



ناطحو الصخور



على غرار متسلقي الجبال ومكتشفي المغارات والكهوف، والمغامرين في بعض الألعاب والرياضات كالتزلج على أعالي الجبال، والتجديف في أخطر الأنهار، والقفز العمودي من أعالي الجسور، هناك ناطحو الصّخور، وللناس فيما يرغبون مقاصد !

جذور هذا المصطلح تغوص في عمق التاريخ الإنساني، فمع كل رسالة سماوية كان معارضون يقفون أمام الرسالة وأتباعها بالمرصاد : يفتنون ويقاومون ويحاولون بأقصى جهدهم أن يطفئوا نور الهداية والإيمان .. ولكن الرسالة تنتصر وتستمر، وينهزم المكذبون الجاحدون، فتختفي آثارهم ولا يبقى من أخبارهم إلا بعض ما حملوا من أوزارهم وأوزار من أضلوهم..

وقد عاش شاعرنا الأعشى مثل هذه التجربة في محيطه الاجتماعي فلاحظ أن بعض خصومه يحاولون طمس الحقائق، وإلباس الباطل لباس الحق، وهم في غاية الجبن والضعف، فقال: كناطح صخرة يوما ليفلقها *** فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وتستمر التجربة؛ لأنّ النّطاح لم يعتبروا من هزيمة من مضوا، ويحسبون أنّهم أدقّ في التّصويب، وأقوى في النّطح .. ولكن النّتيجة واحدة لا تتغيّر ولن تتغيّر.

خلفية هذا العنوان تنطلق من قراءات وسماعات ومشاهدات وقرارات مراجعها كتب ومقالات، وقنوات ومواقع في (الشّابكة) تتنافس على استحضار النّطاح من كلّ حذب وصبوب،

وباختلاف اللّغات واللّهجات من أجل نطح صخور العقيدة والأحكام وقواعد السلوك، بغية إحداث شقوق أوخدوش أو تلوين الصّخور بما تشاء أهواؤهم من المكر والكيد .. ومن هؤلاء النّطّاح معارف ونكرات من دكاترة وأساتذة وباحثين ومتخصّصين في معارف وفنون شتّى، رضعوا لبن الجحود وإنكار الحقّ، وتعلّموا مساحيق المعرفة لتزيين الصّور والهيكل، وظنّوا أنّهم وصلوا قمّة المجد، ولم يعد لهم من همّ غير الهدم والرّدم، والقده والنّطح فيما مضى وغبر، واحتضان ما وفد من السّقط بديار الفسق واستقر. أجمعوا أمرهم على التّنقيص من كمال الدّين، ومهاجمة المتشبّثين به والتّحريض على معاداتهم لئلاّ يروا ولا يسمعوا ما ينغص عليهم حياتهم من منهج الحقّ سبحانه: افعل ولا تفعل..

لقد غاضهم ما يسمعون أو يقرؤون، وما يرون من ثقة أهل الإيمان بدينهم واعتقادهم نظرا وعملا بأنّ الإنسان جسم وروح، وأنّ الحياة دار ابتلاء واختبار، وأنّ الجزاء على العمل آت لا ريب فيه، فأعلنوا الحرب على كلّ قديم، وشرعوا في الكيد للمؤمنين بإثارة الشّكوك في عقيدتهم، والتّنقيص من مكانة أعلام الأمتة، والطّعن في مقاصدهم وأهدافهم، وليس لهم من مؤهّلات لما يخوضون فيه غير فقاعات ومصطلحات بها يتنّفّسون ومنها يتعيّشون. فراح بعضهم يقامرون في الحديث الشّريف ينزعون نصّا من محيطه ويصبغونه بما يشتهون من ألوان، وما يرمون إليه من أبعاد، يخوضون فيه خوض الجاهل الغريق دون دليل أو رفيق. وذهب آخرون إلى الفقه الإسلامي فكتبوا وطعنوا، وتكلّموا وهاجموا، فأنكشفت جهلهم، وظهر حقدهم، فضلّوا وأضلّوا، وهم أبعد ما يكون من سمت الفقه نظرا وعملا. وأسقط آخرون نظريّات تخصّصاتهم في العلوم على نصوص من القرآن والسّنة بقصد كشف الخلل - كما يدعون- فاختلّوا وهاموا في التّيه وما زالوا.. وصرخ آخرون في محافل إعلاميّة ومراكز علميّة ومجالس عموميّة وخصوصيّة: «أبعدوا هذا الدّين من حياتنا، جفّفوا منابعه، حتّى لا يبقى له أثر، ولا يسمع له خبر». ولكنّ الدّين باق، محفوظ لأهله، به يعيشون، وعليه يموتون، لا يخافون إلّا الله، ولا يرغبون إلّا فيما عنده، وإليه المرجع والمصير.

فماذا بقي لناطحي الصّخور؟

أقول لهم: «حافظوا على نواصيكم، هوّنوا على أنفسكم، حكّموا عقولكم، وراجعوا أنفسكم، وقوموا أعمالكم قبل أن تقوم عليكم. وأنتم تعلمون أنّه كان أناس قبلكم سدّدوا سهامهم لهذا الدّين فتكسّرت، وحاربوه بأسلحة زمانهم فنبت وقلت، وبقي الدّين وسيبقى صامدا شامخا سليما معافى لا يضره صراخ المنكرين الجاحدين، ولا هتاف الجاهلين الحاقدين، **«وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ»** (سورة الشعراء - الآية 227)



تحرير القدس

أو في أسباب زوال الكيان الصهيوني



لو أراد أئمة المنابر أن يشحنوا هم المصلين في خطبهم الجمعية حول القضية الفلسطينية لأعادوا التذكير برمزية القدس التاريخية بما هي أولى القبلتين وثالث الحرمين، ولذكروا برمزياتها السياسية عبر جعلها معياراً يدل على حالة الأمة الإسلامية. فالقدس تعبر اليوم عن حالة الضعف والهوان التي تعاني منها الأمة الإسلامية. كما يمكنهم تجييش العواطف عبر الدعوة إلى إقامة نظام الإسلام الذي يؤدي إلى تطبيق العدل داخل النظام العالمي (العدل الذي تصحبه القوة فتكون بذلك قوة عادلة)

لقد تمكن المسلمون من فتح بيت المقدس وهو الوعد الأول للمسلمين الذي جاء في النص القرآني⁽¹⁾، أما الوعد الأخير، فهي تمكين المسلمين من استرجاع السيادة على بيت المقدس، ولا يكون ذلك إلا من خلال الإعداد المسبق لتحقيق القوة المادية (الاقتصادية) والعسكرية (رباط الخيل). والعلّة أنّ عامة المسلمين وخاصّتهم اليوم، حين ما يتحدثون عن نصر الله واسترجاع القدس، فإنهم يقرّون بأنّه وعد الله (قراءة ميتولوجية) إلا أنّهم لا يسعون في الأرض من أجل تحقيق ذلك الوعد لهم كما وعد الله بني إسرائيل من قبل بالنصر والتّمكن بمجرد الدّخول.

ربّما تكون الكثرة الثانية قريبة وذلك لأسباب متنوّعة ومتعدّدة إلا أنّ الوضع لن يتغيّر إن استمرت حالة الخمول والكسل الذي تعيشه الأمة في هذا العصر. وللإشارة فإنّ مدّة أربعين سنة⁽²⁾ تمثّل المدّة

(1) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (سورة الإسراء، الآية 5)

(2) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (سورة المائدة، الآية 26)

الطَّبِيعِيَّةَ لبناء جيل جديد قادر على حمل راية التَّغْيِيرِ والدَّفَاعِ عن القضايا التَّارِيخِيَّةِ. وقد حرَّمت الأرض المقدَّسة كما أسلفنا الذِّكر أربعين سنة على بني إسرائيل، في المقابل لا تزال القدس محرَّمة علينا لأكثر من سبعين سنة، ولن نحلم يوماً باستردادها ونحن بنفس عقليَّة الخذلان والكسل، فذلك يتناقض ومفهوم بالأَسباب. لن نتناول في تحليل أسباب زوال الكيان الصَّهْيُونِي العرض الدِّيْنِي القائم على الحتمِيَّة التَّارِيخِيَّة بل سنركز على المعطيات التَّارِيخِيَّة في بعدها السِّيَاسِي (الجزء الأول) وعلى المعطيات الجغرافيَّة في بعدها الاقتصادي (الجزء



حرَّمت الأرض المقدَّسة على بني إسرائيل أربعين سنة، وفي المقابل لا تزال القدس محرَّمة علينا لأكثر من سبعين سنة، ولن نحلم يوماً باستردادها ونحن بنفس عقليَّة الخذلان والكسل، فذلك يتناقض ومفهوم بالأَسباب



الثَّانِي) حتَّى يكون في المقال جانب من المصادقيَّة العلميَّة.

الجزء الأول: أسباب تاريخيَّة

يمكن تقسيم الجزء الأول والمتعلِّق بالأسباب التَّارِيخِيَّة إلى عنصرين؛ في السِّيَاسَة الدَّاخِلِيَّة (العنصر الأول) وفي السِّيَاسَة الخَارِجِيَّة (العنصر الثَّانِي)

العنصر الأول: في السِّيَاسَة الدَّاخِلِيَّة

لاحظ ابن خلدون أنَّ الدَّولَ تمرُّ بعدة تطوُّرات من ناحيتين: الأولى الأحوال العامَّة من السِّيَاسَة والاقتصاد والعمران والأخلاق، والثانية، التَّطوُّرات التي تحدث من ناحية العظمة والقوَّة والامتداد. وقد ربط ابن خلدون أطوار الدَّولة بثلاثة أجيال فقط، فالجيل الأول يقوم بعملِيَّة البناء والعناية، والجيل الثَّانِي يسير على خطى الجيل الأول من التَّقْلِيدِ وعدم الحيد، أمَّا الجيل الأخير فيمكن تسميته بالجيل الهادم، «فالدَّولة لها أعمار طبيعِيَّة كما للأشخاص»، على حدِّ تعبيره.

والمتدبَّر في السِّيَاق التَّارِيخِي نلاحظ وجود تسارع للأحداث في المشهد السِّيَاسِي الإسرائيلي. فالجيل الأول بقيادة بن غريون وتأسيس أركان كيان غاصب. وأمَّا الثَّانِي فقد ارتخت القيادة الإسرائيليَّة بعد حرب أكتوبر 1973 فأصبحت النُّخبة تتناقش في قضايا التَّرف ما أدَّى إلى فساد القيادة الحاكمة. واليوم يعاني الكيان الصَّهْيُونِي من أزمة بنيويَّة وسياسيَّة حادَّة على مدار عامين، جرت خلالها أربع انتخابات برلمانيَّة دون أن تتمكَّن الأحزاب من تشكيل حكومة سياسيَّة. أمَّا على المستوى الأخلاقي، فنجد أن زعيم حزب الليكود اليميني المتطرَّف بنيامين نتنياهو تلاحقه قضايا فساد، إضافة لذلك نجد تراجع أداء الجهاز القضائي عبر تغوُّل الأحزاب الدِّيْنِيَّة فيها (قضاء غير مستقل). كما أنَّ الأزمة الصَّحِيَّة والاقتصاديَّة بسبب جائحة كورونا فاقمت الأزمة.

العنصر الثاني: في السِّيَاسَة الخَارِجِيَّة

أدت شعبيَّة الرِّئِيس الأمريكي السَّابِق ترامب عبر اتخاذه قرارات سياسيَّة متطرَّفة (كنقل السَّفارة الإسرائيليَّة للقدس) إلى بعثرة أوراق منطقة الشَّرْق الأوسط وتصاعد الاحتقان الشَّعْبِي العربي على هذه

السياسات مما ولد إعادة استحضار القضية الفلسطينية في الوعي الجمعي العربي.

كما أن رحيل إدارة الرئيس الأمريكي السابق دونالد ترامب، وممارسات الاحتلال من قتل للأبرياء وأسر للنشطاء وهدم للأبراج الإعلامية خلال الحرب الأخيرة على غزة، كل هذه العوامل لعبت دوراً مهماً في زيادة التصدعات داخل إسرائيل من جهة وانهيار للسردية الصهيونية لدى نخبة واسعة من المجتمع الغربي من جهة أخرى نتج عنه إعادة بناء ووعي جديد قوامه التحوّل من صورة الضحية للقيادة الإسرائيلية إلى صورة المعتدي والمغتصب للأرض والسارق للممتلكات.

يعلم الجميع أنّ النفط ينتج طاقة غير متجددة، فهو إلى زوال مع آخر قطرة نفط في العالم، ولعل نهاية عصر النفط باتت وشيكة، مما سيؤدي إلى عدم اكتشافات الغرب بالسرطان المزروع في جغرافيا العرب منذ سنة 1948 والتوجه إلى تكوين تحالفات جديدة حفاظاً على مصالحه في المنطقة

هناك أحداث تاريخية كبرى ساهمت في تشكل النظم الدولية لعل أبرزها الحروب التي لها تأثير مباشر وقصري على الساحة العالمية وكذلك الأوبئة، التي لها تأثير أعمق على المدى الطويل، مما يؤثر في الاتجاهات والتيارات المتحركة بعدها. ولعلنا نلاحظ كيف أظهر وباء «كورونا» تراجع العولمة أي تراجع النفوذ الأمريكي. وفي المقابل نلاحظ صعود الشرق الأقصى (الصين) عبر نفوذها الاقتصادي العالمي المتمثل في طريق الحرير عبر بنية اقتصادية عالمية تربط القارات الثلاث وهي عولمة جديدة بطابع اقتصادي صرف (طغيان المادة على الروح). هذه التحوّلات ستؤدي إلى بروز قطبية عالمية مرنة (أمريكا والصين) مع غياب الإيديولوجيا، مما يجعل العالم يدخل في «عصر كورونا» دون قيم، وهو ما سيؤثر على الاهتمام الأمريكي بإسرائيل تأثيراً يجعل من أمريكا حليفة للعرب ومخاصمة لإسرائيل بسبب الصين.

الجزء الثاني: أسباب جغرافية

يمكن تقسيم الجزء الثاني والمتعلق بالأسباب الجغرافية إلى عنصرين؛ نهاية البترول (العنصر الأول) ونهاية السكان (العنصر الثاني)

العنصر الأول: نهاية البترول

تكمّن أهمية الشرق الأوسط من الناحية الجيوسياسية في مادة النفط التي تم اكتشافها منذ منتصف القرن التاسع عشر، وقد ساهم هذا الاكتشاف في اندلاع الثورة الصناعية والتقدم الصناعي في القطاعات المختلفة. ولأهمية هذه المادة في السياسة العالمية تعمل القوى العالمية الكبرى (أمريكا، الصين، أوروبا، ..) على استقطاب البلدان التي تنتج هذه المادة الرئيسية في العملية الاقتصادية داخل المنظومة العالمية والهيمنة عليها.

لكنّ جائحة «كورونا» أظهرت محدودية النفط كمصدر رئيسي للطاقة في العالم، ما يؤدي إلى ابتعاد اقتصادات العالم أكثر فأكثر عن الوقود الأحفوري، وهو مؤشر على أنّ النفط سيظلّ رخيصاً في المستقبل المنظور. كما أنّ الاضطراب في أسواق النفط ليس مجرد سحابة عابرة بل هو مؤشر على ما سيكون

عليه المستقبل، حيث دخل العالم مرحلة جديدة تتسم بانخفاض الأسعار، ستكون دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا الأكثر تضرراً منها⁽³⁾.
 يعلم الجميع أنّ النفط ينتج طاقة غير متجدّدة، فهو إلى زوال مع آخر قطرة نطف في العالم، ولعلّ نهاية عصر النفط باتت وشيكة، ممّا سيؤدي إلى عدم اكتراث الغرب بالسّرطان المزروع في جغرافيا العرب منذ سنة 1948 والتوجّه إلى تكوين تحالفات جديدة حفاظاً على مصالحه في المنطقة.

العنصر الثاني: نهاية السّكان

يلعب العامل الديمغرافي عاملاً هاماً في ازدهار الدّول أو اندثارها. والمتدبّر في الوضعيّة الحاليّة للنّمو الديمغرافي في فلسطين يكتشف أنّ النّمو السّكاني يلعب لصالح الفلسطينيين على حساب الإسرائيليين وذلك لسببين على الأقلّ:

- أمّا الأول فهو أنّ الإنجاب لدى الفلسطينيين يعتبر من الأولويّات؛ فقد ابتكر الأسرى الفلسطينيون في السّجون الإسرائيليّة وخاصّة منهم المحكومين مدّة طويلة طريقة لإنجاب أطفال لهم وذلك من خلال تهريب السّائل المنوي أو ما يُعرف بالنّطفة المهرّبة التي يتمّ تلقيحها في زوجة الأسير بإشراف أحد مراكز الإخصاب الموجودة داخل قطاع غزّة.

- أمّا الثّاني فهو أنّ الإسرائيليين لا يتوالدون بكثرة لكونهم مجتمع ليبرالي لا يعيرون اهتماماً كبيراً بموضوع الإنجاب، كما لا يمكن أن يتحصّل أي فرد على الجنسيّة الإسرائيليّة أو حتّى أن يكون يهودياً فقط إلّا بتوفّر شرط أن تكون الأم يهوديّة (الانغلاق على الذات)، في حين أنّ الديانتين الرئسيّتين في المجتمع الفلسطيني (الإسلام والمسيحيّة) منفتحتان على الجميع وذلك من خلال عمليّة الدّعوة في الإسلام والتّبشير في المسيحيّة.

هذه العوامل أدّت إلى وجود فارق شاسع بين النّمو الديمغرافي لدى الفلسطينيين والإسرائيليين بأغلبية فلسطينيّة كبيرة.

إنّ نهاية عصر البترول وصعود نجم الطّاقات المتجدّدة، عوامل جغرافيّة تنبئ بزوال الكيان الصهيوني لكونه كيان استيطاني، لا يسعى إلى استغلال العامل الديمغرافي الموجود في المستعمرة بل يتجاوزها إلى طرد السّكان الأصليين في المستوطنة.

»
 إنّ نهاية عصر البترول وصعود نجم الطّاقات المتجدّدة، عوامل جغرافيّة تنبئ بزوال الكيان الصهيوني لكونه كيان استيطاني، لا يسعى إلى استغلال العامل الديمغرافي الموجود في المستعمرة بل يتجاوزها إلى طرد السّكان الأصليين في المستوطنة.
 «



الهادي بريك
«بلحث وكتاب - ألمانيا»
brikhedi@yahoo.de



من هو محمد صلى الله عليه وسلم؟ (قراءة في خلقه وخصائصه وسيرته) الحلقة السادسة : أميته معجزته



لم يرد مفهوم الإعجاز بمعناه المتأخر لا في القرآن ولا في الحديث. إنَّما إختاره النَّاس دلالة على ما به يؤمن الإنسان عندما يدعو نبيَّ إلى عقيدة التَّوحيد. يستخدم القرآن الكريم دلالة على مفهوم الإعجاز كلمة آية بالإفراد أو آيات جمعا. وهي العلامة - الأمانة - التي يبثها سبحانه حاملة البرهان على صدقيَّة ذلك النَّبيِّ أو هذا الكتاب. حتَّى عندما دعاهم إلى الإتيان بشيء مثل القرآن الكريم لم يستخدم صيغة الإعجاز. لكنَّه أثبت الكلمة في سياقات أخرى من مثل قوله ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أو إخباره عن نفسه سبحانه أنَّه لا يعجزه شيء في السَّمَاوَاتِ ولا في الأَرْضِ. وبمثل ذلك لم يستخدم ﷺ هذه الصِّيغة حتَّى عندما أن أوانه في حديثه الذي رواه أبو هريرة: «ما من نبيِّ إلَّا وقد أعطي من الآيات ما عليه آمن البشر إلَّا أنِّي أوتيت وحيا أوحى به الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة». وإذ لا مشاحة في المصطلح، فإنَّ النَّاس إستحدثوا كلمات جديدة منها كلمة معجزة بدل آية ومنها كلمة عقيدة بدل الإيمان وغير ذلك. ولكن يظلُّ الإستخدام القرآنيَّ أولى مبنى ومعنى معا.

قيمة الآية في الهداية

معلوم أنَّ سنَّة الله سبحانه جرت على الإتيان بآيات مادّية قاهرة للعقل - فوق عقليَّة بالتَّعبير المعاصر - تعزَّر النَّبيِّ في سالف الزَّمان من مثل ما جاء عن ناقة صالح عليه السَّلام وأدوية عيسى عليه



أَمِيَّتُهُ ﷺ - بمعنى عدم القراءة والكتابة - ثابتة بالكتاب العزيز نفسه ثبوتاً قطعياً لا يجادل فيه عدا جاهل، وهي جزء من آيات صدقه وأن الكتاب الذي جاء به تنزيل من رب العالمين وأنه مبلغ إياه فحسب وأن كل ذلك تيسير من الله سبحانه للناس أن يؤمنوا.



السّلام وغير ذلك. عدا أنّ ذلك إنقطع بالرّسالة الإسلاميّة الأخيرة التي جاءت بأية واحدة كفيّلة بالهداية وعليها مدار الإيمان والكفر وهي القرآن الكريم. وهي نقلة نوعيّة عظمي في معالجة الوحي لهذه القضية. يردّ الناس ذلك إلى تأهل العقل البشريّ لإستقبال ذلك. ولكنّي متردّد فيه سيما إذا إقتصر عليه ولا مناص من ترك الخوض فيه الآن بسبب خروجه عن أمّ حديثنا. تكمن قيمة الآية - سواء كانت مادّية في الخاليات أم فكريّة في الحاضرات - في إظهار رحمة الله سبحانه بالبشر. فهو لا يرسل إليهم رسولا من أنفسهم فحسب ليكون منهم ليس بدعا فيهم ولكن يعزّره ببرهان - عقليّ أو فوق عقليّ - ييسر لهم

الإيمان. ومن شأن الإنسان - فطرة - أن تشرّب نفسه إلى المعجزات المادّية الخارقات. وهو دأب أكثر المسلمين اليوم في عصور التّفهقر حتّى وهم بين أيديهم آية الآيات الباهرات الباقيات أي القرآن الكريم. ومن ذا فإنّ تلك القيمة تكمن في تيسير الله سبحانه على الناس في أوّل الخليقة قضية الإيمان ويستجيب لما جبلهم عليه أي طفولتهم البشريّة المشرّبة لآية مادّية قاهرة قال عنها سبحانه: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾⁽¹⁾. ومن جانب البشر أنفسهم، فإنّ من حقّهم على كلّ نبيّ أن يأتي ببرهان ساطع على رسوليته إذ لو جعل الأمر عفوا من ذلك لظهر في كلّ قوم نبيّ يدعي الرّسالة ومثله في كلّ عصر ومصر. الآية هي إذن تقوم مقام الوديعة الذهبية التي تصدّق قيمة العملة الجارية السائلة في الأسواق بين الناس أو مقام الخاتم الذي يختم به الملوك ومن مثلهم كتبهم لتكون معبرة عنهم ناطقة بإسمهم تجنّباً لكلّ تزييف.

أَمِيَّتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ جُزْءٌ مِنْ آيَاتِ نُبُوَّتِهِ

أَمِيَّتُهُ - بمعنى عدم القراءة والكتابة - ثابتة بالكتاب العزيز نفسه ثبوتاً قطعياً لا يجادل فيه عدا جاهل. قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾⁽²⁾. كما أكّد هذا المعنى ذاته في قوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكُمْ﴾⁽³⁾. ولم يكتف بإثبات أميته إنّما ساق علّتها إذ قال سبحانه في الآية السالفة ذاتها ﴿إِذَا لَازَتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾. وهذا هو معنى أنّ أميته كانت برعاية إلهية وتدبير سماويّ لأجل ألا يرتاب المبتطلون فيقولون أنّ هذا الرّجل هو الذي يكتب هذا القرآن الكريم وليس ذلك بمستحيل عنه لأنّه غير أمّي. فأمّيته إذن ﷺ جزء من آيات صدقه وأنّ الكتاب الذي جاء به تنزيل من ربّ العالمين وأنّه مبلغ إياه فحسب وأنّ كلّ ذلك تيسير من الله سبحانه للناس أن يؤمنوا. فكما يسرّ للأولين الإيمان بأيات مادّية مناسبة لوضعهم الحضاريّ يسرّ سبحانه للآخرين - ونحن منهم - ذلك بأن جعل نبيّه محمداً ﷺ أمياً أمية كاملة. فلا مجال إذن

(3) سورة العنكبوت - الآية 48

(2) سورة الأعراف - الآية 157

(1) سورة الشعراء - الآية 4



لَبَّتْ أُمِّيَّةَ ﷺ غرضين كبيرين:
غرض مناسبة أن يكون النبي من أنفسهم ومنهم. أي بلسانهم ومن رحم واقعهم، والغرض الثاني هو رحمة الله سبحانه بهم وبالناس أجمعين، إذ أعفاهم من التفكير في عدم أميته ﷺ وما ينسل منها من أنه هو كاتب الكتاب أو من يخطه



للطعن أنه هو من يكتب الكتاب أو يخطه بيمينه. ولم تكن أميته ﷺ بدعا إذ أن أكثر العرب أميون بالكامل حتى قال ﷺ «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ» (4). وذلك عندما أراد بيان عدد أيام الشهر القمري وتردده بين ثلاثين ودونها بيوم واحد. أميته إذن ليست نقيصة فيه لأجلها يهرع المذبذبون من شباب التدين اليوم إلى إختراع أساطير تخرج معنى الأمية من سياقها اللغوي والشري والعربي. إذ أن هؤلاء وقعوا - دون وعي منهم - تحت محركات القصف الغربي التي تتكبر بالعلوم والمعارف وتستنكر أن يكون النبي أميا. والحال أن مفجري تلك المحركات لا يؤمنون بالغيب أصلا. إنما أميته لبّت غرضين

كبيرين: غرض مناسبة أن يكون النبي من أنفسهم ومنهم. أي بلسانهم ومن رحم واقعهم، ولو كان غير أمي لأستنكروا عليه ذلك. ومعهم كل الحق لأن العرب في جماعها الغالب أمة أمية. وعندها يتسلل إليهم أن هناك من شياطين الإنس أو الجن من يعلمه. فهو إذن منهم لسانا وتربة ونسبا وملبسا وكل شيء. وهذا ادعى إلى تصديقهم لولا الكبر الذي ملأ حناجر أفئدتهم. الغرض الثاني هو رحمة الله سبحانه بهم وبالناس أجمعين، إذ أعفاهم من التفكير في عدم أميته ﷺ وما ينسل منها من أنه هو كاتب الكتاب أو من يخطه. أميته إذن أمانة صدقه وعلامة نبوته لمن ألقى السمع وهو شهيد.

آيات أخرى أهملها المسلمون وتعلقوا بالواهيات

من خلاصات حياتي التي أموت عليها إن شاء الله أن أوفي منهاج عقليّ ينحت شخصيّة الإنسان هو تحكيم القرآن الكريم أولا أي قبل السنّة ذاتها والسيرة وما عليه الصحابة. على فضل صاحب السنّة المبينة للقرآن الكريم نفسه وفضل صحابته الكرام. ولكن القضية منهجية وليست غير منهجية. من ذلك أن كثيرا من المسلمين لجؤوا إلى ما ثبت وما لم يثبت من المعجزات المادية التي أجراها سبحانه على يديه في أوقات قليلة ومتقطعة إثباتا لنبوته غافلين عما ورد في القرآن الكريم نفسه. ولكن هذه العاهة المنهجية لم ينج منها إلا قليل من قليل وخاصة في أعصارنا وأمصارنا الحاضرة. من تلك الآيات التي جاء بها القرآن الكريم دلالة على نبوته - من بعد أميته - وهي من صميم الآية العظمى المطلقة الوحيدة على صدقيته ﷺ: عدم التكلف. وذلك فيما ورد في قوله سبحانه على لسانه: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (5). وقبل المضي لا بد من العلم بأن أكثر الآيات الدالة على نبوته في الكتاب العزيز إنما وردت في القرآن المكي كما يقال. أي قبل أن تنشأ ناشئة النفاق مدججا من قوافل بني إسرائيل ومن إمتداداتها المعاصرة حركة الإستشراق التي ادّعت أنه ﷺ كان يستشرف الوحي وردّ الله عليهم سبحانه بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (6).

نفي التَّكْلَفِ فَسَّرَهُ بَعْضُ السَّابِقِينَ أَنَّهُ لَزُومُ التَّنْزِيلِ
فَلَا يَأْتِي بِتَنْزِيلٍ مِنْ عِنْدِهِ. وَلَا أَرَى قَصْرَ هَذَا عَلَيْهِ. إِذْ أَنْ
التَّكْلَفِ - لِسَانًا - يَعْنِي تَصْنَعُ الشَّيْءَ زِيَادَةً فِيهِ أَوْ نَقْصَانًا
مِنْهُ. وَهُوَ مِنَ الْكَلْفِ وَهُوَ كَثْرَةُ الشَّغْفِ بِالشَّيْءِ وَالْوَلَهُ
بِهِ كَمَنْ كَلَّفَ بَفْتَاةً لِحَمَالِهَا أَوْ بِصِنْعَةٍ يَخْرِجُهَا لِلنَّاسِ.
وَصِيغَةُ (التَّفْعَلُ) تَعْنِي زِيَادَةً مِنَ الْفَاعِلِ. وَمَنْ ذَا يَكُونُ
التَّكْلَفُ دِينًا التَّعَمُّقُ فِيهِ عَلَى وَجْهِ يَنْفِي عَنْهُ بِسَاطَتِهِ
وَيُسِرُّهُ وَسَهُولَتِهِ وَتَلْقَائِيَّتِهِ. وَهِيَ الْآفَةُ الَّتِي ظَهَرَتْ
بَاكِرًا فِي عَهْدِ النَّبُوَّةِ نَفْسَهَا ثُمَّ إِزْدَهَرَتْ عَلَى أَيْدِي الْخَوَارِجِ
وَالْغَلَاةِ مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ وَمَدْرَسَةٍ.

»
النَّبُوَّةُ مَفَارِقَةٌ لِلْمَلِكِ. إِذِ الْمَلِكُ
لَهُ مَا لَيْسَ لِلنَّاسِ وَعَلَيْهِ مَا لَيْسَ
عَلَيْهِمْ. أَمَّا النَّبِيُّ فَهُوَ أَثْقَلُ النَّاسِ
حَمَلًا وَعِبَادَةً وَتَكَالِيفٍ وَأَقْلَهُمْ مِنْ
حِظِّ الدُّنْيَا. تِلْكَ آيَةٌ أُخْرَى مِنْ آيَاتِ
نَبُوَّتِهِ ﷺ مِمَّا أَهْمَلَ الْمُسْلِمُونَ فَلَا
تَجِدُ فِيهَا لَا مُتَحَدِّثًا وَلَا كَاتِبًا إِلَّا قَلِيلًا



مَا يَدْفَعُنِي إِلَى هَذَا الْمَفْهُومِ (الْجَدِيدِ) لِلتَّكْلَفِ هُوَ سِيَاقُهُ

الَّذِي جَاءَ فِيهِ قَوْلُهُ ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ (7) وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ أَجْرًا فَهُوَ يَجُودُ
لَهُمْ بِضَاعَتِهِمْ كَمَا يَشَاوُونَ هُمْ فَهُوَ عَلَى ذِمَّتِهِمْ يَصْنَعُ لَهُمْ دِينًا فِي حَالَةِ النَّبُوَّةِ يَعْجَبُهُمْ وَيَمْسَحُ عَلَى
شِغَافِ أَهْوَائِهِمْ. وَمَنْ ذَا نَفِي عَنْهُ سَبْحَانَهُ الْأَجْرُ مِنَ النَّاسِ - حَتَّى حَقَّهُ فِي الْإِرْثِ مِنْ عَصْبَتِهِ بَلْ حَتَّى
الصَّدَقَةِ إِلَّا الْهَدِيَّةَ - حَتَّى لَا يَكُونَ ذَلِكَ حَقًّا لَهُمْ عَلَيْهِ يَبْتَزُونَهُ بِهِ لِيَتَكَلَّفَ لَهُمْ دِينًا أَوْ تَدِينًا يَرْضِيهِمْ. وَلَا
رَيْبَ أَنَّ الْمَعْنَى الَّتِي أُشَارَ إِلَيْهَا الْأَوَّلُونَ صَحِيحٌ عِنْدَمَا يَكُونُ تَكْلَفًا بِهَذَا الْمَفْهُومِ لَيْسَ قَاصِرًا عَلَيْهِ. الْعِبْرَةُ
مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ - عَدَمُ التَّكْلَفِ - هِيَ بِسَاطَةُ الدِّينِ وَيُسِرُّ تَكَالِيفَهُ وَإِنْسِجَامُهَا مَعَ فِطْرَةِ الْبَشَرِ. وَهِيَ مِنْ
أَكْبَرِ الْآيَاتِ الَّتِي عَلَيْهَا آمَنَ غَرِيبُونَ كَثِيرُونَ وَمَا زَالُوا بِحَوْلِهِ سَبْحَانَهُ.

وَعِنْدَمَا يَبْعَثُ نَبِيًّا يَلْقَى مِنْ قَوْمِهِ الَّذِي يَلْقَى وَهُوَ يَهْدِيهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَا يَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ أَجْرًا وَلَوْ
كَانَ بِمَقْدَارِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ وَهُوَ يَمْشِي بَيْنَهُمْ خَاوِي الْبَطْنِ وَلَا يَتَكَلَّفُ لَهُمْ دِينًا يَرْهَقُهُمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَقْمَنُ
بِالِاسْتِجَابَةِ وَأَدْعَى إِلَيْهَا وَأَجْدَرُ أَنْ يَنْدَاحَ دِينَ هَذِهِ طَبِيعَتُهُ وَهَذِهِ طَبِيعَةُ نَبِيِّهِ. وَلَكِنَّ الْكِبْرَ لِلنَّاسِ
بِالْمُرْصَادِ. وَمِنْ تِلْكَ الْآيَاتِ كَذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ - كَكُلِّ مَنْ سَبَقَهُ - مَكْلَفٌ بِتَكَالِيفِ الدِّينِ نَفْسَهُ. بَلْ هُوَ أَثْقَلُهُمْ
حَمَلًا. إِذْ هُوَ يَقُومُ اللَّيْلَ وَجُوبًا لَا نَافِلَةً إِخْتِيَارِيَّةً. وَهُوَ أَقْلَهُمْ نَصِيبًا مِنَ الدُّنْيَا. إِذْ لَا يَرِثُ مِنْ عَصْبَتِهِ كَمَا
تَفْعَلُ الْبَشَرِيَّةُ كُلُّهَا جَمْعَاءَ قَاطِبَةً. وَلَا يَمُدُّ يَدَهُ لَصَدَقَةٍ وَلَا يورثُ كَذَلِكَ.

النَّبُوَّةُ مَفَارِقَةٌ لِلْمَلِكِ. إِذِ الْمَلِكُ لَهُ مَا لَيْسَ لِلنَّاسِ وَعَلَيْهِ مَا لَيْسَ عَلَيْهِمْ. أَمَّا النَّبِيُّ فَهُوَ أَثْقَلُ النَّاسِ
حَمَلًا وَعِبَادَةً وَتَكَالِيفٍ وَأَقْلَهُمْ مِنْ حِظِّ الدُّنْيَا. تِلْكَ آيَةٌ أُخْرَى مِنْ آيَاتِ نَبُوَّتِهِ ﷺ مِمَّا أَهْمَلَ الْمُسْلِمُونَ فَلَا
تَجِدُ فِيهَا لَا مُتَحَدِّثًا وَلَا كَاتِبًا إِلَّا قَلِيلًا فِي حِينِ أَنَّ الْمُحْتَفِينَ بِمَعْجَزَاتِ مَادِيَّةٍ قَلِيلَةٌ جَاءَتْ لِتَلْبِيَةِ أَوْضَاعِ
خَاصَّةٍ كَثِيرُونَ لَا يَكَادُونَ يَحْصُونَ. أَيُّ الْآيَاتِ أَوْلَى بِالِاحْتِفَاءِ؟ وَآيَاتُ أُخْرَى يَضِيقُ عَنْهَا هَذَا الْحَدِيثُ وَقَدْ
نَعَالَجُهَا بِإِذْنِهِ سَبْحَانَهُ فِيمَا يَأْتِي.

معجزته العظمى الوحيدة الباقية: القرآن الكريم

إنعقد الإجماع على أن آية الإسلام ونبيّه محمد ﷺ إنّما هي القرآن الكريم لقوله الذي ورد قبل قليل في أول سورة الشعراء المكية. وهو الدليل الأعظم الذي لا يقهر ولا يتسلل إليه أيّ احتمال أن الله ما شاء - ولو شاء لفعل - أن تكون آية نبيّه الخاتم ﷺ آية مادية تظلّ الأعناق لها خاضعة كما وقع للسالفين. وكان البديل عن ذلك ما جاء في حديثه الصحيح عن أبي هريرة ممّا سلف في هذه المعالجة. وهو الذي يؤكّد ما أكّده القرآن الكريم نفسه أن النبوات السالفة جاءت بآيات عليها أمن الناس. إنّما كانت آيته هو وحيا أوحى إليه به. وعلّل ذلك ﷺ بأنّ ذلك أدعى إلى إيمان الناس. ولذلك قال: «أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة». هذا دليل على أن الإنسان كائن عاقل حرّ يقاد من عقله ويقود هو نفسه غيره من عقله وليس دابة تقاد من عنقها أو من رجلها.

وكما تقدّم فإنّ المسلمين في أزمنة تأخرهم وعهود تقهقرهم لجؤوا إلى ظنيّ الثبوت أي الحديث - وهو هنا آحاد - ليبرهنوا على نبوة محمد ﷺ. بل زاغوا في ذلك زيغانا كبيرا وناهوا تيهانا أكثر إذ جعلوا منه نبيا للبهيمة يكلمها وتكلمه وتؤمن به وكلّ هذا تهافت يجري على غير منهاج القرآن الكريم. وحتى لو ثبت شيء من ذلك - وبعضه ثابت ولكنه قليل - فإنّه ليس من ضرب الآية النبوية التي عليها مدار الإيمان والكفر. إنّما جاء ذلك تلبية لضرورات معيشية من مثل تكثير الطّعام والشّراب لجيش نفدت مؤونته أو تلبية لحاجات عقول أعرابية جلفة غليظة إستبدت بها مادية الأعراب الكئيبة، فكان لا مناص من خطابها بخطاب ماديّ مثلها، فإنبجس الماء العذب رقرقا عذبا صافيا من بين أنامله الكريمة ﷺ أو حنّ الجذع إليه وقد هجره بعد أن إتخذة خطيبا يخطب إلى جنبه. وكيف ننكر عل الجذع حنينه إلى كلام الله سبحانه وهو آية منه هو نفسه؟ وكيف نتخذ ذلك براهين عامّة على نبوته والحال أنّ من شهد ذلك من الناس قليل من قليل بل لا يكادون يعدّون على أصابع اليد الواحدة وجاء آحادا. إذ لو كان مقصد ذلك الهداية لشهدا كلّ الناس ولا يكفي أن يروياها بعضهم لبعض. ولكنه التّهافت المنهاجيّ عندما يستبدّ بالعقول ليرتدّ بها إلى الآيات المادية الأولى.

لم يكن هذا غرضي من هذه الفقرة الجديدة. إنّما غرضي هو أنّ المسلمين - غابرا وحاضرا كذلك - لم يكن يعينهم من آية القرآن الكريم عدا جانبها اللسانيّ اللغويّ الذي تنافس فيه العرب الأقحاح قديما وجديدا تنافسا مهماً وكان عطاؤهم فيه جزيلا وافيا. ومن يدرس ما حبرّ العلامة ابن عاشور مثلا ومن قبله الزّمخشريّ وابن عطية وغيرهم كثيرون لا يكادون يحصون يقف على روعة البناء النّظميّ للقرآن الكريم ومثلهم كذلك ضلال سيّد قطب عليهم الرّحمة جميعا.

المحرج لنا اليوم ونحن نعالج تحديات أكبر وأكثر وأعظم هو أنّ تراثنا الغابر والحاضر قصر فقهه ومعالجاته على هذا الضرب من الآيات أي التحدّي النّظميّ. المطلوب منّا اليوم هو الإحتفاظ بما حبرّه السّابقون إعجازا لسانيا بزّ العرب الأقحاح أنفسهم ويكبّتهم تكبيتا وتجاوزته إلى بناء تحديات جديدة يحتاجها الناس في عصرنا. وربّما على رأس ذلك التّشريع في جملة وخصّة فيما إرتبك فيه الناس والمسلمون منهم أي التّشريع الأسريّ في ظلّ هجمات منظمّة الأمم المتحدة نفسها على (الإسلام العائليّ



وتشريعاته الخاصة بالمرأة) ومنها كذلك موضوع الدولة والحكم تأسيسا وعلاجاً وإدارة في ظلّ تبعيّة أمتنا كلّها وبأسرها تقريبا إلى دوائر دوليّة نافذة تستعبدنا بالدولار واليورو والينّ والجنيه وغيرها إستعبادا أنكى من الإستعباد التقليديّ السالف. ولا حاجة لي الآن في عدّ التّحديات المعاصرة التي علينا مقاومتها بأية الإسلام العظمى والوحيدة أي القرآن الكريم. ولكنّ الحاجة هي في بيان أنّ الآية البلاغية التي جاء بها القرآن الكريم قد وفّاهما السّابقون حقّها وزيادة حتّى وقر في قلوب أكثر المسلمين اليوم أنّ آية القرآن الكريم الوحيدة هي لسانه وبيانه ونظمه. وهذا ظلم كبير. إذ أنّه آية خاتمة قابلة لمقاومة كلّ حيف وقهر وتحذّ جديد ولكن بشرط أن

يكون المسلمون معاصرين لزمانهم ومكانهم وواعين بقضاياهم العظمى وبخصومهم وبأسلحتهم. وليس مسلمين فوّتوا في عقولهم التي بها يتدبّرون لغيرهم سواء كان غيرهم هذا سلفا مضى بعد أن أدّى ما عليه أو خلفا حضر فهو يغويهم ويغريهم ويسحرهم برجله وخيله

قراءتنا العوجاء لأميته عليه السلام

من مفارقات الزّمن النكدة أن تكون أميته ﷺ جزءاً من آيات نبوّته ورسالته وعليها مدار الإيمان ثمّ ينزلق بنا الأمر حتّى تكون أمتنا شبه أمية بالكامل أمية حقيقية فضلا عن الأمية الحضارية. أي مفارقة أن يكون نبيّ الأمّة أمياً رحمة بها لتؤمن بيسر ثمّ ترث أمته اليوم في زمن تبرز العلوم وإزدهار المعارف أمية نالت منها ثلاثة أرباع. إذ أحصت الأمم المتحدة منذ سنوات طويلات أنّ ثلاثة أرباع الأمّة الإسلاميّة أميون أمية حقيقية بالكامل فلا قراءة ولا كتابة. والأنكى من ذلك كلّهُ أنّ الأمّة العربية نفسها - التي عليها مدار بثّ الإسلام الذي نزل بلسانها - حظّها من هذا الوباء القاتل والسّم الزّعاف زهاء 45% . تلك قراءتنا العوجاء لأميته ﷺ وناكية النّاكيات أن بعض شباب التّدين الجديد يؤصّلون ذلك بقوله أنّف الذّكر أنّنا أمّة أمية. إن كان ضحكا فهو أنكى من البكاء. أنّي لأمة عليها مناهج الهداية البشريّة التّائهة أن تقود الإنسانيّة إلى مصافّ النّهضة والتّقدّم والخير والعلوم والمعارف وثلاثة أرباعها أميون؟ أيّ قيمة لتلاوتنا سورة العلق وسورة القلم وغيرهما وهما يعدّان العلم بوصلة كلّ خير وعلامة كلّ تقدّم؟ كيف نبتهج بحناجر ذات أصوات أجمل من الجمال بل هي تصنع الجمال ترتل آيات العلم والمعرفة والقلم ونحن أميون بالكامل قراءة وكتابة في أغلبنا؟ أليس هذا معنى أنّ الدين مخدّر للشّعوب؟ أليس هذا هو الذي جعل الغرب الفلسفيّ يفتكّ منّا وما زال يفعل خيرة شبابنا ونسائنا؟ هذا ليس للعويل والبكائيات الكربلائية السّاخطة. إنّما هذا لنعي أنّ خطبنا جلّ جلل لعلّنا نرتدّ إلى آيتنا الوحيدة أي القرآن الكريم به نعيد نحت عقولنا ورسم صورتنا وعلى الله وحده سبحانه الهداية إلى الصّراط المستقيم.





م. رفيق الشاهد
«مهندس»
rafik.chahed@meteo.tn

صرخة في صخب صامت (12) - الأخيرة



تبيّنت «نوفل» أنّها ليست خلافاً وإنّما تتمّة لجمال وروعة الكون. إنّها الجزء الذي لا يكتمل بدونه الكلّ. وهي روح خلق الله. وهي تعتقد أنّ الله أحسن خلقها وجعلها في أحسن تقويم. ولا اعتراض على تدبيره طالما خصّت بالشّيء النّادر والنّفيس. تعلّمت «نوفل» من خلال قراءاتها الفلسفيّة كيف تكون الاسم الفاعل لا المفعول، فلم تكثر لما يشاع من أفكار سيّئة. وواصلت ذلك النّسق من التّفكير الذي صنع منها المرأة المهابة التي أغوت الجميع، ولا أحد تجرّأ واقترب منها.

أصبحت «نوفل» منذ مدّة يراودها قلق مأتاه سؤال متكرّر وملح وهو «ماذا لو تجرّأ أحدهم وطلب يدها من البابا؟». المسألة تبدو بسيطة، وما هو إلاّ غشاء رقيق يمكن فضّه بسهولة ولكن كلّ يوم يمرّ على «نوفل» يراكم على رأسها خوف جديد حتّى أصبح الغشاء قشرة سميكة يصعب على الفرخ بداخلها فقسها دون الاستعانة بمطرقة من الخارج. كم يمكن لأبيها الصّبور أن يتحمّل هذا الحرج، وماذا بإمكانها أن تفعل لتكسر الصّدفة التي أصبحت من فولاذ؟

لابدّ أن تتصرّف بحكمة حتّى لا تزيد المسألة تعقيداً وتُدخل والدها في متاهات أخرى، وتزيد في الطّين بلة. هي كثيرة القرب من والدها الذي تعودت تشاركه أفكارها وهواجسها والبرامج المستقبلية، ولم تجد منه إلاّ تعاوناً ووفاقاً على كلّ ما بادرت به لرسم حياتها. وكانت لا تخفي عليه شيئاً إلاّ ما أخفى نفسه، أي أنّه رغم كلّ هذا القرب، بقيت هناك زوايا خفية لم يمكن لها إضاءتها لأبيها، أشياء تعتبرها جدّ خصوصية. هو كذلك يشاركها هذا الرّأي باعتبار أنّه لم يبادر يوماً بتسليط الضّوء على هذه الزّوايا المظلمة والتي لم تكن منسيّة ولكن ظلّت متروكة لأجلها المحتوم الذي بقي لمشية الأقدار.

أبوها يعتقد أنّ ابنته ذكيّة بما يكفي لتعالج مشكلاتها الخصوصية وتسطر حياتها. ووضع نفسه تحت الطلب والتزم في قرارة نفسه وكما تسرب لنوفل أن لا يدخر جهدا في الاستجابة لخيارات ابنته. وعلى قدر اعتقاده في قدرتها على معالجة المسائل الصعبة والمعقدة فإنّه يخشى عليها بقدر خشيتها عليه من مجابهة مسألة الزواج التي لم تعد تحتل التأخير. وثقل عليه أن يبادر يوما ويتناول في حديثه المعتاد مع ابنته - وإن كان عبر التراسل الإلكتروني هذا النمط الجديد من التقارب عن بعد الذي فرض نفسه بإيعاز من ابنته «نوفل» - لمعرفة موقفها حتى يتبنّاها كما هو أو بعد تعديله بالتوافق بما يتناسب وما يراه.

هل كان بالإمكان أفضل ممّا كان؟ شارفت «نوفل» على الثلاثين بقامتها المكتملة وجمالها الفتان. لمّا كانت إلى جانبه وبالقرب منه كانت حبات سبخته بعدد السنين بيضاء ناعمة يلفها بلهفة منشرحا لا يعكّر صفوه شيطان. ولكنها لم تعد قريبة منه وأصبح غيابها يطول أكثر فأكثر، فتطول سبخته وتثقل بحبات رمادية قاتمة تسربت إليها فلا يكمل دورتها إلاّ بشق الأنفس، وفي كلّ مرّة يعتصر قلبه الذي سلك طريقا أطول، فيستهلك من مخزون الزمن بإسراف حتى الاستنزاف.

أدرك أنّه لم يعد يتحمّل منذ أن أخفى على «نوفل» وللمرّة الأولى النوبة التي أصابته ونقل على إثرها في عجل إلى المستشفى. وإن كانت هذه النوبة الأولى خفيفة إلاّ أنّها مزعجة باعتبارها نوبة قلبية وبأنّ التآلية عادة ما تكون أخطر. المهمّ بالنسبة إليه أن لا يزعج ابنته الغالية بهذا الخطب، وقد أقنع نفسه أيضا أنّه لم يخف عنها شيئا إلاّ بقدر ما أخفى نفسه. وكان ذلك لفترة قصيرة لمّا فاجأته عبر مكالمة هاتفية تستلطفه بعد أن اطمأنت عليه من والدتها التي كانت باتصال كثيف ومستمر معها، تتابع تطوّر صحّة أبيها بكلّ حرقه استجابة لرغبة «بسمة» الملحة على البقاء حيث هي ولا فائدة من العودة لزيارتها لغاية في نفسها هي قضتها.

أصبحت «نوفل» قلقة من ثقل هذه الأحداث المؤثرة وإن كانت متوقّعة باعتبارها معرضة للمصائب مثل غيرها ولا تغيب عن حساباتها. بل إنّها تعتقد أنّ لذة الحياة في بساطتها التي لا تكتشف إلاّ بعد الابتعاد عنها والحرمان منها. دوّنت يوما تعليقا حول «الكبر في هدوء» الذي اعتبرته مأساة جديدة: «... هل يصحّ أن نعتبر حياتنا نحن كذلك؟ لا، بالطبع حياتنا أكثر ديناميكية في مشاعرنا المتلاطمة بين قمم السعادة وقعور البؤس والشقاء، ونحن نجري وراء آمالنا البعيدة هناك في الأفق القزوردي. حياتنا تراجيديا لا رتابة فيها والدليل تفاوت الأعمار عند الموت الذي أصبح مفاجئا لا نستعد له. إنّنا نعيش حياتنا اليومية بثقل همومها، إنها معاناة سيسيف القرن الواحد والعشرين بين أمواج عاتية، فمرّة فوق قممها وأخرى في غياهب غورها. ما أسعدنا بحياة نستحق أن نفتخر بعيشها وأن نستمتع بسجل معركتنا من أجل مبادئ إنسانية مفقودة فقط لأننا آمنّا بها. والمعارك المقدسة هي التي تدار من



أصبحت «نوفل» قلقة من ثقل هذه الأحداث المؤثرة وإن كانت متوقّعة باعتبارها معرضة للمصائب مثل غيرها ولا تغيب عن حساباتها. بل إنّها تعتقد أنّ لذة الحياة في بساطتها التي لا تكتشف إلاّ بعد الابتعاد عنها والحرمان منها



أجل إثبات إنسانية الإنسان ما أحوجنا إليها حتى جعل الجري وراءها حياتنا تستحق كل هذا الفخر والاعتزاز. أنا يكفيني شرفا أنني لم أعش حياة راكدة متفرجة في أحداثها، بل خضت فيها وحركت أمواجها ولم أبال متى ألقى حتفي ولا بأي أرض أموت.»

كل هذا جعل «نوفل» تهتم بمآسي من مثلها من مزدوجي الجنس وما يلقونه من اضطهاد وتفرقة باعتبارهم أقلية. بل هي تعتقد أنهم أغلبية في غياب تعداد حقيقي لنسب الذكورة والأنوثة عند كل فرد وفي غياب مقاييس موضوعية لتحديد هذه النسب. كما أصبحت مقتنعة بضرورة التأثير في ثقافة تنبذ جميع هؤلاء

المزدوجين وتستهن سلوكهم. ولا يكون ذلك إلا بالوقوف إلى جانبهم والاستماع إليهم والدفاع عنهم، وإن لزم الأمر إدارة المعارك المشروعة التي تتطلب التضحية بكل غال ونفيس طالما الأمر يستحق.

لم تخف نوفل شيئا إلا ما أخفى نفسه ولم تخف مساندتها «للناس التي تعاني» على لسان الفنان لطفي بوشناق ولا للأقليات المسحوقة بكامل أقطار الأرض من ضحايا الميز العنصري والإثني والعقائدي وكذلك من يعيش معاناتها. فكيف لا تهتم بذويها وكيف لا تفتخر بمثل هذه المواقف التي أصبحت تدون وتسجل في السيرة الذاتية لمن يريدون الاعتلاء إلى مراتب الشخصيات المرموقة. هي لم تبحث أبدا عن الشهرة ولا أن تزوق سيرتها الغنية حتى الثراء كفاءة علمية ومساهمات فكرية بشهادة المنظمات الدولية. كل هذا لحاجة في نفسها قضتها. فلم تتأخر نوفل يوما على حضور اجتماع دعيت إليه بالمشاركة أو الحضور. وتعود القائمون على الأنشطة الداعمة لهذه الفئة المضطهدة على حضورها المميز في كل مرة وعلى مداخلاتها القيمة وسخائها في العطاء من وراء ستار. وفهم الجميع أفكارها الجديدة الداعية إلى ضرورة التفرقة بين ازدواجية التوجه الجنسي وازدواجية الجنس حيث تكون الأولى نتيجة الثانية وإلى التشكيك في أقلية مزدوجي الجنس باعتبار ما صرحت به الأخصائية عند تحديد جنسها: «إذا ما اعتبرنا الذكورة والأنوثة حالتين متضادتين فلا بد أن توجد أوضاع ومراتب وسطية وبنسب مختلفة من الذكورة والأنوثة بما فيها الحالة النادرة نسبة هذه تعادل تلك». كما عرفت بينهم كذلك بشدة حرصها على الارتحال من وضعية الضحية التي كُتِب لها تحمّل الاضطهاد إلى مواجهته، فتوزعت كتابتها في مناشير تدعو إلى الضغط على الرأي العام لما يتعرض له هؤلاء من تعسف وظلم. وذهبت نوفل إلى أبعد من ذلك بالدعوة إلى إغراق صفحات التواصل الاجتماعي بصور لحقيقة ما لديهم من ازدواجية ليكتشف من لا يعرف الحقيقة كم هي قبيحة إذا تعرت وكم كثر هم هؤلاء مزدوجي الجنس والتوجه حتى يعيشوا حياة كريمة وإن قلّ عددهم.

وجدت نوفل أناسا لا تهتمهم نسب الذكورة والأنوثة لديهم ولا يهمهم أن يسميهم البعض

«مراجل». وجدت بينهم الراحة وطيب المعاشرة ووجدوا لديها أفكارا لا يحتويها مكان.



طالبان... بعد عشرين سنة من القتال تنتصر على الأمريكان





وحيد الدين خان

الشيخ وحيد الدين خان أحد أعلام الفكر الإسلامي في الهند والعالم الإسلامي وأحد أهم رموز الإصلاح والإحياء الديني المعاصرين، وهو حالة فريدة في الفكر الإسلامي، من حيث مساره الفكري والسياسي وإنتاجه العلمي. اعتمد منهاجا يجمع بين المنهج المعرفي الإسلامي والمنهج العلمي والفلسفي، لدراسة العلاقة بين العلم والإيمان من جهة ومقارعة الإلحاد من جهة أخرى. ورغم صعوبة المجال الذي كان يعمل فيه فقد كانت مؤلفاته موجّهة إلى العامّة والخاصّة بحكم جمعها بين البساطة والعمق.

ولد وحيد الدين خان في غرّة جانفي من عام 1925 في بلدة أعظم غاره (Azamgarh) بالهند. فقد والده وهو ابن أربع سنوات، فعاش حياته يتيما في أسرة ذات تقاليد إسلامية عريقة في التّعليم والتّربية والدّعوة. التحق بمدرسة الإصلاح الإسلاميّة في سراي مير، في عام 1938، وفيها تلقّى التّعليم الديني وبرزت مواهبه الفكرية. ومن هذه المدرسة، بدأت رحلة أخرى من رحلات البحث، كان قوامها المطالعة التي صادفت شغفا في نفس الرّجل ونهما إلى المطالعة وذكاء مفرطا. فقد كان خان يدمن قراءة الكتب العلميّة والفكريّة، خصوصا باللّغة الإنجليزيّة. وقد قرأ أزيد من عشرة آلاف صفحة عن الماركسيّة لكي يستوعب فلسفتها، ليكتب بعدها كتابه الشّهير «الماركسيّة في الميزان».

انضم الشيخ وحيد الدين خان مبكراً لـ«الجماعة الإسلاميّة» التي أسّسها أبو الأعلى المودودي في شبه القارة الهنديّة عام 1941، لكنّه انسحب منها في بداية السّتينيات بعد خمسة عشرة سنة من الانتماء، إثر خلاف عميق مع نهج الجماعة في تصوّر الخطاب الإسلامي وفي نهج الدّعوة وأولويّاتها.

في كتابه «خطأ في التّفسير» الصّادر بالأوردية عام 1963 (ترجم للعربيّة سنة 1992) يورد خان بالتّفصيل الخلفيّات الكاملة والمفصّلة لقطيعته مع المودودي وجماعته، ناشراً الرّسائل التي تبادلها مع قادة الجماعة، بمن فيهم المودودي نفسه الذي آثر عدم الرّد على اعتراضاته الجوهرية بخصوص فهم الإسلام والدّعوة إليه. فقد وقف خان بقوة في وجه فكرة الحاكميّة، معتبرا أنّها فكرة جديدة لا دليل عليها من نصوص الشّريعة الإسلاميّة. ومن ثمّ بلور خطابا فكريّا ناقدا لها، وقوام نقده لفكرة الحاكميّة أنّها تمثل ردّا سياسيا لا حضاريا على النّكسات التي حلّت بالمسلمين عبر تاريخهم، وتحديدًا سقوط الخلافة الإسلاميّة العثمانيّة، وأنّها تمثّل تفسيرا جديدا للإسلام يختصره في قالب السّياسة، ويؤمن بأنّ تأسيس الدولة الإسلاميّة وإقامة نظامها هو الغاية الأساسيّة من هذا الدّين. وفي هذا يقول خان: «إنّه ليس من الخطأ أن نقول إنّ الإسلام نظام للحياة، ولكن رفع النّظام حتّى يصبح هو الجامع بين كلّ أجزاء الدّين،

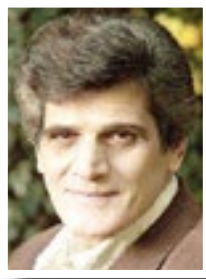
فذلك هو الخطأ بعينه... لقد جعل هذا التفسير النظام محور التّصوّر الديني وحكمته الجامعة، ولذلك أصبح النظام الحيثية الأولى للإسلام في هذا التفسير، فلم يعد بالإمكان فهم الإسلام إلا في ضوء النظام!!»

نجح خان في إحراز إنجازات كبيرة في محاوره الملحدين، ففي كتابه «الإسلام يتحدى» اعتمد خان على المنهج العلمي عبر استغلال قوانين الإحصاء والفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء لمقارعة الملحدين وإثبات وجود الله، واستند إلى بعض أبحاث ونظريات اللادينيين والملحدين العلمية واستخدم الحجج والقضايا العقلية الإلحادية، ليكشف زيفها وتناقضها ثم قلبها بأسلوب علمي لصالح إثبات وجود الله. وقد احتاج خان إلى قراءات هائلة في الفكر المادي الغربي، وخصوصاً مؤلفات الصف الأممي من مفكره، قبل أن يكتب ناقداً ومتحدياً له، كما قرأ بتمعن وتمكّن مؤلفات «برتراند راسل» الذي يمثل أحد رؤوس الإلحاد الفلسفي في العصر الحديث. يكشف الكتاب عمق المنهج الفكري لوحد الدين خان، فقد صدره برأيه ورؤيته لعالم اليوم، حيث اعتبره عالم الماديات الذي يعيش أعتى ثورة للإلحاد. وقد أسس وحيد الدين خان في كتابه «الإسلام يتحدى» علم كلام جديد مناسب للعصر خالياً من جدل الفرق الإسلامية القديمة، ومتجرّداً من محاكاة الفلسفة الإغريقية القديمة، وفق ما يرى الدكتور محمد عمارة.

يرى وحيد الدين خان أنّ عدم العنف أصل أصيل في الدين الإسلامي، ولذلك كانت دعوته تقوم أساساً على محاربة العنف والتطرّف ونشر السلام، وباستنباط حسابي يرى أنّ المعارك القتالية للنبي الكريم ﷺ استغرقت 36 ساعة لا أكثر من عمر الرسالة التي استمرت 23 سنة. وقد استطاعت هذه الفكرة أن تجذب عدداً كبيراً من الشّباب الهندوسيين إلى الإسلام. كما استطاع وحيد الدين خان أن يعزّز العلاقة مع مختلف الرّموز الدينيّة في المجتمع الهندي وعمل معها على إطلاق مظاهرات وطنية تشمل مختلف الطوائف من أجل السلام.

في عام 1970 أسّس وحيد الدين خان المركز الإسلامي في نيودلهي، والذي عمل على إصدار مجلة «الرسالة» بالأردية عام 1976، ثم بالإنجليزية والهندية أعوام 1984 و1990 وذلك لنشر فكره ورؤيته عن روح السلام في الإسلام والمسؤولية الاجتماعية للمسلمين وللترويج للفكر والعمل الإيجابي.

توفي المفكر الإسلامي وحيد الدين خان في نيودلهي، الأربعاء 21 أبريل 2021، عن 96 عاماً، بعد أيام من ثبوت إصابته بفيروس كورونا، وبوفاته فقدت الهند والعالم الإسلامي مفكراً دينياً بارزاً وعالمًا إسلامياً حاول - حتى نهاية حياته - ردم هوة الخلافات، باحثاً متعمقاً في أمور عصره بأعمق ظواهرها وأعدت تشعباتها، شارحاً لثقافة الإسلام الخالدة في أدقّ خصائصها وأشمل معطياتها تاركاً خلفه مكتبة علمية كبيرة باللّغة الأردية والهندية والإنكليزية. حيث تتجاوز مؤلفاته 200 كتاب، وترجمت كتبه إلى العديد من اللّغات، وترجم له ابنه ظفر الإسلام خان إلى العربية قرابة 40 كتاباً. ومن بين مؤلفاته «الإسلام يتحدى»، «الدين في مواجهة العلم»، «رسول السلام»، «تعاليم النبي محمد»، «الجهاد والسلام والعلاقات المجتمعية في الإسلام»، «أيدولوجيا السلام»، «حاضرنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام»، «قضية البعث الإسلامي»، «حكمة الدين»، «الإنسان القرآني»، «شرح مشكاة المصابيح»، «يوميات الهند وباكستان»، «الإسلام والعصر الحديث» بالإضافة إلى تفسيره القرآن الكريم «تذكير القرآن»...



أحمد مطر
«شاعر عراقي مهاجر»



أعياد ..!

قال الراوي:

للناس ثلاثة أعياد

عيد الفطر،

وعيد الأضحى،

والثالث عيد الميلاد.

يأتي الفطر وراء الصوم

ويأتي الأضحى بعد الرجم

ولكنّ الميلاد سيأتي

ساعة إعدام الجلاد.

قيل له : في أي بلاد؟

قال الراوي:

من تونس حتى تطوان

من صنعاء إلى عمّان

من مكة حتى بغداد

قُتل الراوي.

لكنّ الراوي يا موتى

علمكم سر الميلاد.



يا ملحدًا

- أدرك بعقلك ياذا الطين والخزف *** شتان بين كلام الله والخرف
- أدرك بجهلك نور العلم منتشرا *** بين النجوم وبين الماء والصّدْف
- قد صمت مسغبة في الفكر والأدب *** حتّى فطرت بلحم الكلب والجيف
- الله ربك ربّ النَّاس كلّهم *** فاقراً لنفسك ما في الكتب والصّحف
- إن كان سمعك لا حقّ يخالطه *** فاسمع هديت عن الأجداث والغرف
- قد طال خزيك في وكر الجهالة إن *** يلقاك منتبه يرميك بالسّعْف
- الجدّ هزل لذي خرق وذي سفه *** والمارقون له يحيون بالطّرف
- الآي أحقرها ذرّات صانعها *** والأرض واسعة الأرجاء والطّرف
- انظر تجد عوضاً عمّن قرأت لهم *** إن لم تجد رطباً فالعيش بالحشف



كلمات : حافظ الشيرازي / أداء : الشيخ أحمد جويالي / موسيقى : زياد سحاب



ألا يا أيها السّاقِي

ألا يا أيها السّاقِي
أدر كأساً و ناولها
فمن توقعه نفس في
شراك العشق يعذلها

يفوح الطيب من جعد
به ريح الصّبّا هبّت
و ذاب المسك في موج
مضى بالمهجة الولهي

فلب الشيخ قم لـوّن
سجاجيد التقى بالـرّاح
من يرفع عصى الترحال
مهما طال ينزلها

فإن رمت الحُضورَ اليوم
فالأيامُ قد حَضَرت
متى ما تلقى من تهوى
دع الدنيا وأهلها



لسماع الأغنية على العنوان التالي:

<https://www.youtube.com/watch?v=UGL2kXF5q0M>



سبق الخير...!!!





الإصلاح



يتجدد الموعد معكم
إن شاء الله مع عدد جديد
أكتوبر 2021
صفر - ربيع الأول 1443



www.alislahmag.com



alislah.mag@gmail.com



facebook.com/Alislahmag



twitter.com/alislah_mag